FIFA WORLD CUP
RUSSIA 2018

دفتر الأباطرة

دفاتر

ممدوح حمادة

دفتر الأباطرة

قصص قصيرة

دفتر الأباطرة

دفتر الأباطرة

تأليف: ممدوح حمادة

التدقيق اللغوي: عمر الخولي

الإخراج: فايز علام

تصميم الغلاف: لؤي حازم

ISBN: 978 - 9933 - 540 - 07 - 4

الطبعة الأولى: 2016

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا – دمشق – ص ب: / 9838/

هاتف–فاكس: / 6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

fb.com /Adwan.Publishing.House twitter.com /AdwanPH

جميع الحقوق محفوظة للناشر دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو أو بأية طريقة سواء كانت الكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر.

القصص

الرائحة 9

الأجرودي 15

نهايةٌ أولى غير معروفةٍ لقصَّةٍ معروفة (الحذاء) 29

نهايةٌ ثانية غير معروفةٍ للقصَّة المعروفة (الشقيقتان) 35

ذنب البقرة 41

الصورة 47

بعد الهزيم 53

المسيو جاك مات 59

مطالب 67

الذوَّاقة 77

نسخة طبق الأصل 85

الله يطوّل بعمره 93

الإهداء

إلى ذكرى الصديق **يعقوب قريو**

الذي استضافت مجلته «إشراقات عشتروت» الكثير من هذه القصص في الوقت الذي اعتذر عن نشرها الكثيرون.

إلى الصديق **الليث حجو**

الذي أخرج الكثير منها إلى الشاشة.

الرائحة

منصَّة المراسم التي فرشت درجاتها بالسجَّاد الأخضر وتوزَّعت عليها الكنبات والمقاعد الخالية، تحتلُّ شاشة التلفزيون منذ الصباح الباكر، الكاميرا الثانية التي ينتقل إليها المخرج أحياناً، ترصد أسفل المنصَّة، حيث دبَّت حركةٌ نشيطةٌ حوَّلت المكان إلى خليَّة نملٍ حقيقيَّة، عسكريُّون من ضبَّاطٍ صغارٍ وصفٍّ ضبَّاطٍ وجنودٍ يروحون ويجيئون، لا نسمع صوتهم ولكننا نرى حركاتهم المتشنِّجة، ومدنيُّون يبدو أنهم فنيُّون، بعضهم يجرُّ أسلاكاً وبعضهم يشدُّ براغي أو يدقُّ مسامير، والبعض ينادي أحداً ما خارج الكادر، صوت المذيع يصدح بالشعارات الوطنيَّة التي اعتاد عليها الجمهور منذ خمسين عاماً، المراسلون يلتقون بعضاً من المدعوِّين الذين ازدحموا على المنصَّات الملحقة منذ ساعاتٍ،

وقد حمى معظمهم الرؤوس من أشعة الشمس الحارقة بيده، أو بجريدةٍ في يده، أو بأشياء أخرى سُمح باصطحابها، هذا فنَّانٌ مشهورٌ يسألونه عن رأيه بالمناسبة فيشيد ويعدِّد الإنجازات، وذلك أستاذ جامعي يشيد أيضاً ويكرِّر الإنجازات نفسها، وآخر مؤرِّخٌ يشيد ويكرِّر الإنجازات عن ظهر قلب كما لو أنها قصيدةٌ يجب تلاوتها في الامتحان، غير أنه يضيف على من سبقه في الحديث، الأثر العميق الذي تركته هذه المناسبة على حركة التاريخ. كلُّ شيءٍ يدلُّ على عظمة المناسبة التي تجمع هؤلاء وسُخِّرت لها شاشة التلفزيون منذ ساعات الصباح الأولى في بثٍّ حيٍّ ومباشر.

مرَّتْ ساعاتٌ على هذه الحال قبل أن تشرئبَّ أعناق الواقفين على المنصَّات الجانبيَّة وتستدير باتِّجاه المدخل الخلفيِّ الذي يتوسَّط المنصَّة الرئيسة، ويشدُّ قصار القامة منهم قاماتهم ويقفون على رؤوس أصابعهم للتمكُّن من استراق نظرةٍ إلى الإمبراطور الذي ظهر على رأس رهطٍ من الضبَّاط العابسين والموظَّفين الحكوميِّين الذين بدوا بكامل أناقتهم الرسميَّة. أمَّا المذيع، فقد ازدادت نبرته انفعالاً وتصاعدت خلجات صوته وأطلق مجموعةً جديدةً من العبارات التي خُصِّصت لهذه الذكرى، ولشدَّة انفعاله فقد كان يفقد السيطرة على نفسه وينتحب بين الفينة والأخرى. أفراد الفرقة الموسيقيَّة العسكريَّة اتَّخذوا وضعيَّة الاستعداد التي تدرَّبوا عليها، وانتظمت صفوف خليَّة النمل التي كانت تنغل أسفل

المنصَّة من العسكريِّين، بينما اختفى المدنيُّون ولم يعد يقع في الكادر إلا مصوِّرٌ هنا أو هناك.

وما هي إلا لحظاتٌ حتَّى كان الإمبراطور يقف في وسط المنصَّة وقد اصطفَّ الجنرالات وكبار موظفي الحكومة حوله من الخلف وعلى الطرفين، كلٌّ على مسافةٍ تناسب مستوى المنصب الذي يشغله. وانطلقت الفرقة الموسيقيَّة، وأعلن المذيع بدء العرض العسكريِّ الذي تمَّ تحضيره على شرف هذه المناسبة العظيمة.

أخذت الكاميرا تتنقَّل بالتناوب بين الإمبراطور وبقيَّة المسؤولين بلقطاتٍ قريبةٍ وبعيدةٍ متوقِّفةٍ على كلِّ شخصيَّةٍ بحسب أهمِّيَّتها، وكانت كاميرات أخرى نُصبت في أماكنَ معيَّنةٍ على المنصَّة أو تحتها ترصد صفوف الجنود الذين كانوا يصطفُّون في أرتالٍ منتظمةٍ على مسافةٍ من المنصَّة في انتظار أن ينتهي الإمبراطور من إلقاء كلمته التاريخيَّة المقتضبة.

ولكن وفي أثناء بعض اللقطات القريبة، رصد المخرج انفعالاتٍ غريبةً على وجوه الشخصيَّات التي ملأت درجات المنصَّة، انفعالاتٍ بدا فيها تذمُّرٌ واضحٌ من أمرٍ ما، وكان الجميع يسترقون بأطراف عيونهم نظراتٍ خفيَّةً نحو الإمبراطور وكأنهم في انتظار أمرٍ ما يوجِّهه إليهم، حتَّى الإمبراطور لم يكن هو الآخر بخير، فقد ارتسمت على وجهه ملامحُ لا تدلُّ إلا على القرف،

فصل المخرج الكاميرات التي كانت ترصد اللقطات القريبة واكتفى بتلك التي كُلِّفتْ باللقطات العامَّة وبالكاميرا البانوراميَّة التي كانت في حوَّامةٍ تحلِّق فوق المكان.

لم يتمكَّن الإمبراطور من الاحتمال حتَّى ينتهي من إلقاء الكلمة، فرفع يده اليمنى وسدَّ أنفه بسبَّابتها وإبهامها، وأكمل السطرين المتبقِّيين بأنفٍ مسدود، وقد كان ذلك بمثابة الإذن لجميع نزلاء المنصَّة والمدرَّجات لكي يقوموا بالفعل نفسه، فقد سارع الجميع بانشراحٍ واضحٍ إلى رفع الأيدي لسدِّ الأنوف.

صعقت المفاجأة المخرج الذي أمر عبر جهاز اللاسلكي بتوجيه الكاميرات نحو الفرقة الموسيقيَّة.

في الفرقة الموسيقيَّة لم تمضِ لحظاتٌ حتى توقَّفت الآلات النفخيَّة كافَّةً عن العزف بعد أن سدَّ العازفون أنوفهم ولم يبقَ على رأس عملهم سوى قارعي الطبول الذين سدَّ كلٌّ منهم أنفه بيدٍ، وتابع قرع طبله باليد الأخرى.

صاح المخرج عبر جهاز اللاسلكي آمراً بنقل الكاميرات نحو صفوف الجنود التي أخذت تتقدَّم، وقد كان ذلك مخرجاً بالفعل، فقد كانت أرتال الجنود تتقدَّم من المنصَّة بخطى منتظمةٍ لأرجلٍ تكاد الأرض تهتزُّ حين تصطفق بها نعالها.

تنفَّس المخرج الصعداء لأنه عثر على ما يمكن إظهاره على الشاشة، واسترخى على كرسيه في عربة النقل قليلاً، بل وشعر

بشيءٍ من الاستمتاع في متابعة هذه اللوحة الفنيَّة التي يرسمها الجنود، آلافٌ مؤلَّفةٌ من الأرتال تتحرَّك حركةً واحدةً مصدرةً صوتاً واحداً، أمرٌ يبعث على الهيبة.

ولكنَّ ذلك لم يدم طويلاً، فما إن وصلت طلائع الأرتال إلى أمام المنصة حتى دبَّت في أوصالها الفوضى، واختلَّ إيقاعها وكأنها قطعانٌ من الماشية هاجمتها الذئاب، حيث رفع الجنود أيديهم إلى أنوفهم وأغلقوها وأخذوا يتراكضون مبتعدين عن المنصَّة.

- «كلُّ الكاميرات على الأرتال الخلفيَّة!».

صاح المخرج عبر جهازه اللاسلكي، ولكنَّ الأرتال الخلفيَّة كانت قد سدَّتْ أنوفها أيضاً، ممَّا جعله يصيح:

- «إلى السماء... كلُّ الكاميرات تُوجَّه إلى السماء».

وهكذا احتلَّت شاشة التلفزيون سماءٌ زرقاءُ تعبرها سحبٌ بيضاء، ومن مكبِّرات الصوت فيه كانت تنبعث أصواتٌ لطبولٍ تخلو من أيِّ إيقاع، وصوت المذيع الذي لا يزال يطلق الشعارات ولكن بخنَّةٍ واضحة.

الجماهير التي كانت تتابع وقائع العرض على الشاشة، لم تستغرب ما حصل، فهي كانت قد سدَّت أنوفها منذ أن حصلت تلك المناسبة التي يحتفلون بها اليوم.

1987

الأجرودي

كلُّ شيءٍ تحت السيطرة؛ فسعادة وزير الداخليَّة يبعث الرعب في نفوس الجماهير، والإمبراطور على ثقةٍ تامَّةٍ من أنَّ كلَّ أفراد رعيَّته يحبُّونه وينحنون له حتى في المنام، وسعادة وزير الدفاع الذي تثقل الأوسمة صدره يبعث الرعب في حكومات دول الجوار، والحدود آمنةٌ ولله الحمد، وهو على ثقة تامَّةٍ من أنَّ أيّاً من جيوش هذه الدول لن يتجاسر على التفكير في الاعتداء على حدود إمبراطوريَّته، ولو فكَّر مجنون من حكَّام هذه الدول في إعلان الحرب عليهم فسيكون هذا سبباً كافياً لانهيار معنويات جيش ذلك المجنون. باختصار فقد كان كلُّ شيءٍ في أمانٍ واطمئنان.

الأمر الوحيد الذي كان يبعث الامتعاض في نفس جلالته هو ذلك الولد العاق الذي أنجبه، والذي سيؤول إليه العرش بعد

رحيله، وقد كان الإمبراطور يعتبر وليَّ عهده ولداً عاقاً، ليس لأنه تمرَّد على أبيه أو أبدى سوء خلق تجاهه، فهو كان على استعداد لأن يفدي الإمبراطور بأرواحه السبع إن توفَّر لديه مثل هذا العدد من الأرواح، وكان أيضاً يبدي كلَّ آيات الطاعة والاحترام، ولم يكن وليُّ عهدٍ من أولياء عهود الجوار يتمتَّع بمثل هذا الإخلاص لوالده كما هو حال ابنه. غير أنه كان يعتبره عاقاً لأنه أجرودي، لا ينبت في وجهه شعر، كيف سيحكم فيما بعد إمبراطوريَّةً يتوسَّط علمها شاربان معقوفان كقرني ثور؟ سؤالٌ محيِّرٌ حقَّاً، وليس له عند الإمبراطور جواب، إنَّ حاشيته لا تسخر من وليِّ العهد الآن، ليس إخلاصاً منها ولا تعفُّفاً عن السخرية، وإنما مهابةً منه، وهو على الرغم من حقده على وليِّ العهد لأنه أجرودي، فإنَّ عاطفة الأبوَّة الكامنة في أعماق نفسه كانت تمنعه من إرسال الأمير إلى السجون التي لا يعود منها أحد، والتي كان يرسل إلى غياهبها كلَّ من خوَّلت له هرموناته أن يكون أجروردياً، أو كلَّ من ارتكب جريمةً سياسيَّةً حيث يتمُّ حلق شاربيه على الملأ ويرسل إلى هناك، وكانت حلاقة الشاربين أشدَّ وطأةً من السجن في ذلك الوقت. وقد حاول الإمبراطور العثور على وسيلةٍ لكي ينبت الشَّعر في وجه وريث عرشه، فدعا الأطبَّاء الذين وصفوا له المراهم، ودعا المشعوذين الذين جعلوه يقوم بطقوسٍ غريبةٍ يندى لها الجبين، ليس أسوأها دهن الشاربين بروث الوحوش ودماء الجرذان ونخاعات القرود

الساخنة، ولكنَّ ذلك كله كان بدون جدوى، ولكي يخرج من هذا الصراع الذي كان يدور في داخله قرر الإمبراطور أن يترك الأمر للزمن، (فليكن بعد موتي ما يكون) هذه كانت العبارة الأخيرة التي راودت الإمبراطور في خصوص هذا الموضوع ثمَّ تناساه بعد ذلك تاركاً الأمور تسير كما لو أنَّ كلَّ شيءٍ طبيعي، ولكي لا يعود إلى التفكير في هذا الأمر فقد كان يتحاشى مقابلة ابنه الذي لم يفهم سبب تهرُّب أبيه من مقابلته.

وبما أنَّ اللحظة الخاتمة لحياة كلِّ فردٍ لا بدَّ لها من أن تحين، فقد لفظ الإمبراطور أنفاسه الأخيرة في بداية فصل الربيع الذي كان أثقل الفصول عليه بسبب حساسيَّته لغبار الطلع الذي يسبِّب له سعالاً حادّاً، وكان من الطبيعي أن يُنصَّب ولي العهد إمبراطوراً بدلاً من أبيه لكي تبدأ مرحلة جديدة من حياة الإمبراطوريَّة، سمَّاها المؤرِّخون لاحقاً (مرحلة الأجرودي).

الشوارب المنتصبة المعقوفة في معظمها نحو الأعلى، والتي كانت تثير الفخر والثقة في نفس أبيه، كانت تثير في نفس الإمبراطور الجديد التقزُّز والخوف والقلق، وكان يُهيَّأ له أحياناً وهي تروح وتجيء أمامه، أنها شلايا من الذئاب تنتظر الفرصة المناسبة لكي تنقضَّ عليه وتمزِّقه إرْباً، أو عقاربُ تدور حوله في طقس سُمِيٍّ منتظرةً الفرصة المواتية لبثِّ سمِّها في عروقه، وكم كان يتمنى لو أن النار تشتعل في هذه الشوارب فلا تبقي

على شعرةٍ منها، وكثيراً ما كان يتخيَّل المنظر ويسمع حسيس النار التي تأكل تلك الشوارب ويشمُّ رائحة احتراق الشعر، وفكر كثيراً في إصدار فرمانٍ إمبراطوريٍّ يقضي بحلق الشوارب، ولكنَّ مستشاريه نصحوه بعدم الإقدام على مثل هذه الخطوة، لأنه من غير المستبعد أن يستغلَّها دعاة الجمهوريَّة الذين ينشطون في السرِّ لكي يطيحوا بالنظام الإمبراطوريِّ من أساسه، ولأنَّ الأجرودي لم تكن لديه رغبةٌ كبيرةٌ في أن يكون آخر أباطرة سلالته، فقد اقتنع بكلام المستشارين الذين اقترحوا عليه بدورهم خطَّةً بديلة، خطَّة تعمل على التخلُّص من ظاهرة الشوارب بشكلٍ تدريجيٍّ وعلى نارٍ هادئة، عبر فرماناتٍ متعاقبةٍ تحطُّ من هيبة الشوارب، بحيث تحوِّل الشارب تدريجيّاً إلى عبءٍ على صاحبه.

أوَّل فرمانٍ أصدره الإمبراطور للحطِّ من شأن الشوارب هو فرض شكلٍ موحَّدٍ لشوارب الموظفين في كلِّ مصلحةٍ من مصالح الدولة، فالعاملون في مصلحة العقار لهم شوارب على شكل خطٍّ رفيعٍ فوق الشفة العليا، ومعلمو المدارس لهم شاربان على شكل مثلَّثين قائمين تفصل بينهما مساحةٌ خاليةٌ صغيرة، أما رجل الشرطة فشارباه على شكل مستطيل. وأبدع في تخيُّل أشكال الشوارب، تاركاً فقط شوارب ضبَّاط الجيش معقوفةً إلى الأعلى كما كانت، وذلك لهدفين، الأوَّل ضمان حيادهم تجاه القرارات وجعلهم يشعرون بالتميُّز عن غيرهم وهذا أمرٌ يرضي غرورهم، على أمل

أن يستفرد بهم لاحقاً بشكلٍ من الأشكال، وهذا هو الهدف الثاني. وهكذا تدخَّلت الدولة لأوَّل مرَّةٍ في موضوع الشوارب التي كانت في السابق، ولقرونٍ عدَّة، المجال الحيويَّ الوحيد لكي يعبِّر المواطن فيها عن نفسه ويظهر تميُّزه عن الآخرين.

الكثيرون ذرفوا الدموع أمام المرآة وهم يقصُّون الذيول القرنيَّة لشواربهم، ويحفُّون جزءاً عزيزاً منها لكي تلائم الشكل المحدَّد في الفرمان. ولكنَّ الجميع في اليوم التالي خرجوا إلى الشوارع وقد نفَّذوا القرار الذي نصَّ عليه الفرمان الإمبراطوري.

لم يكن اختيار فئة الموظَّفين عبثاً من قبل الإمبراطور، فالموظَّف الذي يقبض راتبه من خزينة الدولة من جهة، ورشوته من جيب المواطن من جهةٍ ثانية، دون أن يبذل أيَّ جهدٍ فعلياً، لم يكن مستعدَّاً للتضحية بدخله الكبير من أجل كتلةٍ من الشَّعر فوق شفته العليا، ولكي يتابع عمله على رأس وظيفته كان عليه أن يلتزم بالقرار، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإنَّ توجيه الإهانة لشوارب الموظَّفين كان سيشفي غليل الرعيَّة ويجعلهم يشمتون بهم، وفي الوقت نفسه يولد شعورٌ بالحبِّ تجاه الإمبراطور الجديد، وهذا ما حصل فعلاً، فقد شعر معظم المواطنين بالسرور لهذا القرار ولم يخفوا ابتساماتهم في اليوم التالي وهم ينظرون إلى الأشكال الجديدة للشوارب التي انتشرت في شوارع البلد خلال فترة ذهاب الموظفين إلى عملهم، وكانت الشوارب العقاريَّة أكثر الشوارب إثارةً للضحك.

ولكنَّ الرعيَّة لم تكن تعلم أنَّ النوايا السيِّئة كانت تزحف نحو شواربها، فبعد إذلال الموظَّفين بفترةٍ وجيزةٍ، صدر فرمانٌ آخر جعل الجميع يضعون أيديهم على شواربهم، فقد قرر الإمبراطور فرضَ ضريبةٍ على الشوارب توقَّع أن يحلق نصف رعيَّته بعدها شواربهم غير آسفين عليها، ولكن ولدهشة الإمبراطور فقد تشكَّلت الطوابير أمام مكاتب الضرائب في صباح اليوم التالي، كلٌّ يريد دفع الضريبة قبل حلول مساء اليوم وهو المهلة التي تُحلق الشوارب بعدها إن أوقفت المرء دوريَّةٌ ولم يكن يحمل القسيمة التي تثبت أنه دفع الضريبة.

المستشارون قالوا للإمبراطور إنَّ المواطنين أخرجوا مدَّخراتهم، وإنَّ الكثيرين منهم لن يدفعوا الضريبة في الشهر القادم، عددٌ قليلٌ فقط من الأشخاص لم يتمكَّنوا من دفع الضريبة فحلقوا، ولكنهم ندموا، حيث كان الناس في الشوارع إما يسخرون منهم أو حتى يبصقون في وجوههم، ممَّا جعلهم يرتدون لثاماً يسترون به ما أصبح يشبه العورة بعد حلق الشاربين.

خلال هذا الشهر ارتفع عدد السرقات، فلم يبق بنكٌ أو محل صاغةٍ إلا وتعرَّض لمحاولة سرقة، وقد أكَّد كلُّ الذين ألقي القبض عليهم أنَّ الدافع إلى السرقة هو دفع الضريبة التي أصبحوا عاجزين عنها، وبطبيعة الحال فقد كانت العقوبة إضافةً إلى السجن حلاقة الشاربين وحرمانهم من حقِّ إطلاق الشوارب لمدَّةٍ حدُّها الأدنى

خمس سنواتٍ وحدُّها الأقصى خمسة عشر عاماً، حسب حجم المبلغ المسروق أو بشاعة الجريمة.

في الشهر التالي بعد موعد دفع الضريبة كثر عدد الملثَّمين، وأصبح من الواضح للإمبراطور ومستشاريه أنَّ الذين تمكَّنوا من الاحتفاظ بالشاربين هم أولئك الذين نجحوا في عمليات السطو، والميسورين من الرعية، وهؤلاء سيدفعون كلَّ شهرٍ ولن تشكِّل الضريبة لهم أية مشكلة، ولذلك كان لا بدَّ من الفرمان الثالث، الذي جعل حجم الضريبة متناسباً طرداً مع حجم وشكل الشاربين، فالشاربان المعقوفان إلى الأعلى تمَّ اعتبارهما رفاهيةً يجب دفع ثمن تستحقُّه، والشاربان الكثَّان حدَّد لهما مبلغاً كثَّاً، أما أقل مبلغ فكان على الشاربين المتهدِّلين، ولذلك فقد تهدَّلت الشوارب آلياً شهراً بعد شهر.

ولأنَّ اللثام أصبح يعني تلقائيّاً أنَّ صاحبه حليق الشاربين ومن ثمَّ فقد أصبح يشغل منزلةً أدنى من منزلة بقيَّة أفراد المجتمع، تشبه منزلة الخصيان في مجتمعات الرجال، فقد أنتج التفكير الشعبي طريقةً يمكن من خلالها حلُّ الموضوع، وذلك عبر الشوارب المستعارة، وهكذا راجت هذه الصناعة. ولأنَّ الحواجز والدوريَّات كانت تملأ الشوارع في حملة ما تعارف سكَّان القصر على تسميتها بـ(مكافحة الشوارب)، فقد كان الشخص يلقي

باللثام على وجهه كلَّما اقترب من الحاجز، وبعد أن يتجاوز الحاجز يخرج شاربيه من جيبه ويلصقهما على شفته.

ومع الزمن ظهرت موديلات للشوارب أصبح الرجال يلاحقونها كما تلاحق النساء صرعات الأحذية، وفي الكثير من الأحيان كنت تجد مع شخصٍ واحدٍ دزينة شوارب، يرتديها بحسب الحالة التي هو فيها، فمع حبيبته يرتدي شاربي الفرسان، وفي الوظيفة شاربي الجلاد، وإلى آخره.

بعد أن تمَّ اكتشاف الحيلة، أصدر الإمبراطور فرماناً يمنع فيه مزاولة مهنة صناعة الشوارب وبيعها ولبسها، وفُرضت عقوبةٌ بالسجن على من يُضبط في جيبه شاربان مستعاران تشبه عقوبة متعاطي المخدرات، ومن يضبط في جيبه أكثر من شارب كانت تفرض عليه عقوبة المروِّج، أما الذين يمارسون البيع والصناعة، فقد كانوا يُعامَلون معاملة مزوِّري العملة ومرتكبي الخيانة العظمى. ولذلك فقد تمَّ حلُّ الموضوع بطرقٍ مختلفة، بحيث لا يحمل الشخص شاربيه في جيبه، فكان أصحاب البيوت يمتلكون أطقماً من الشوارب يقدِّمونها لضيوفهم لكي يرتدوها في أثناء الزيارة. وفي الأندية وغيرها من الأماكن العامة راجت مهنة تأجير الشوارب التي يحصل عليها المواطن عند دخوله ويسلِّمها عند خروجه.

عيون الإمبراطور المبثوثة في كلِّ مكان، بما فيهم المخبرون

المتنكِّرون (حليقو الشوارب)، سرعان ما أبلغوا الأجهزة المختصَّة بالموضوع، وهكذا بدأت عمليات المداهمة، ومن أجل تربية القرود السود بكلِّ من سوَّلت له نفسه الاحتيال على فرمانات الإمبراطور، فقد أُعلنت حالة الطوارئ على كلِّ ما يخصُّ الشوارب، فكلُّ شخصٍ تُضبط في بيته شوارب مستعارة يُحكم عليه بالسجن وعلى عائلته بنتف الشوارب، وعلى سكَّان بنايته بالحلاقة، أما الذين يؤجِّروها فأخذ يزجُّ بهم في السجون من دون محاكمةٍ ودون السماح لهم بالتواصل مع العالم الخارجي، ويقال إن بعضهم كانت تتمُّ تصفيته هناك، كما كانت تتمُّ مصادرة أملاكهم المنقولة وغير المنقولة هم وأقاربهم من الدرجة الأولى، ولهذا أصبح كلُّ من يقتني شاربين مستعارين في بيته أو يزاول مهنة التأجير شخصاً منبوذاً يستحق المعس تحت مداحل البلدية.

بهذا الشكل يمكن القول إن الإمبراطور انتصر على الشوارب، وأصبحت الشوارب المستعارة بضاعةً من يقتنيها أو يحملها كمن يحمل أو يقتني قنبلةً موقوتة، فتمَّ التخلِّي عنها. ولكنَّ الوطنيِّين الشرفاء ما كانوا ليرضخوا لهذا الظلم، فقد أسَّسوا حزباً سريَّاً تكاثر أعضاؤه كما يتكاثر الفطر، وانتمى إليه إضافةً إلى كلِّ المحاليق، الكثيرون ممن يسمح لهم وضعه المادي بالاحتفاظ بشواربهم، بدافعٍ وطنيٍّ بحت، ومع الزمن أخذت المدينة تستفيق على بياناتٍ تملأ الجدران وأعمدة الكهرباء صادرة عن حزب الشوارب، في

البداية كانت تطالب الإمبراطور بالتراجع عن فرماناته التي أصدرها بخصوص الشوارب، ثم أخذت تطالب بالإطاحة بالإمبراطور وإقامة جمهوريَّة الشوارب.

حجم جماهير الحزب والأسماء التي احتوت عليها تقارير المخبرين أثارت الرعب في نفس الإمبراطور، خاصَّةً أن من بين المنتمين إليه ضبَّاط كبارٌ تأتمر بأوامرهم عدَّة فيالق من الجيش والقوَّات المسلَّحة، ومن نافل القول إنَّ بعض الأسماء لم يكن لها علاقةٌ بالحزب واحتوت عليها تقارير المخبرين لغاياتٍ شخصيَّة، فرئيس الأركان مثلاً زُجَّ باسمه من قبل مخبرٍ يعمل ضابطاً في أحد أجهزة الأمن لأنه لم يزوِّجه ابنته. وغنيٌّ عن القول إنَّ أشخاصاً مثل قائد الأركان تتمُّ تصفيتهم بأبشع الطرق لمجرَّد أن تحوم الشبهات حولهم، وهذا ما حصل، فقد وُجدت جثَّة الجنرال مرميَّةً على مجمِّع قمامة المدينة مشوَّهةً تملؤها الكدمات، وحصل الضابط الآنف الذكر على ابنة الجنرال ولكن كسبيَّةٍ هذه المرَّة وليس كزوجة.

المستشارون نصحوا الإمبراطور بعدم خوض معركة مع هذا الحزب الوليد، فهو في أوج قوَّته، ولا يستبعد أن يُطيح بالإمبراطور في حال خطر لأحد قادته دعوة الجماهير إلى الثورة، خاصَّةً وأنَّ الكثيرين من الجنود والضبَّاط يمكن أن يتعاطفوا معه، ولهذا كان لا بدَّ من خطَّةٍ مُحْكمةٍ تطيح بهذا الحزب.

وهكذا بعد جلسةٍ مستمرَّةٍ للمستشارين فيما يشبه الاستنفار، اقترح أحد أعضاء المكتب السياسي في الحزب أن يتمَّ تصميم شعار يزيِّن علم الحزب ومنشوراته ويحتلُّ رأس صفحة الجريدة التي يصدرها، وأعجب الجميع بالفكرة وبالشعار الذي اقترحه العضو المذكور، وهو عبارةٌ عن شاربين معقوفين إلى الأعلى، وكادت الموافقة على الاقتراح تتمُّ برفع الأيدي، إلا أنَّ عضواً آخر في المكتب أبدى اعتراضه، بحجَّة أنَّ الشعار المقترح لا يختلف في شيءٍ عن الشعار الإمبراطوري، وأنَّ الحزب يدعو إلى جمهوريَّة الشوارب، وبالتالي فإنَّ الشوارب الجمهوريَّة يجب أن تتهدَّل باتجاه الجماهير لا أن تتعالى على هذه الجماهير بعقفها إلى الأعلى. أثار الانتقاد حفيظة العضو صاحب الاقتراح الأوَّل الذي أكَّد أنَّ شعار الحزب الذي يقترحه لا يشكِّل تعالياً على الجماهير، وإنما يعبِّر عن الفخر والاعتداد (وما شابه من الكلمات التي تعبر عن المضمون نفسه) نشب خلافٌ كاد يستخدم فيه الأعضاء قبضاتهم، ممَّا دفع الأمين العام إلى رفع الجلسة واقترح مناقشة الأمر في اجتماع اللجنة المركزيَّة.

أعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزيَّة أدركوا أنَّ من يقر شعاره في الاجتماع القادم ستكون له مكانةٌ خاصَّةٌ في الحزب وفي التاريخ، ولذلك جاء كلٌّ ومعه شعاره الذي كلَّف رسَّاماً بتصميمه له لكي يبدو على أفضل صورة، وهكذا ظهر شاربٌ على

شكل مربَّع فوق الشفة العليا ادَّعى صاحبه أنه يمثِّل الوسطيَّة في الحزب، وأكَّد أنَّ خير الأمور أوسطها. ولكنَّ آخر ردَّ عليه بجملةٍ كاد يغنِّيها كصباح فخري قائلاً: (شاربٌ مقصوص الجناح شاربٌ لا خيرَ فيه)، واقترح شارباً على شكل دائرةٍ يمثِّل بحسب رأيه اتِّحاد القيادة في الحزب مع الجماهير التي هي جزءٌ من اللحية بحسب تحليله، ولكنَّ مقترحه رُفض، ورُفضت جميع المقترحات الأخرى التي تمَّ تقديمها، ورُفعت الجلسة وعُيِّن موعدٌ قادمٌ بعد شهر يتمُّ خلاله استمزاج الشارع وقواعد الحزب.

خلال ذلك الشهر قام كلٌّ من أعضاء اللجنة المركزيَّة والمكتب السياسي بحملة تجييشٍ لصالحه بين صفوف الحزب، وتمكَّن كلٌّ منهم من جمع أنصارٍ ومؤيِّدين له، وفي اجتماعاتٍ حزبيةٍ كثيرةٍ في عرض البلاد وطولها نشبت معاركُ بين الأنصار المختلفين سالت فيها دماءٌ وحُطِّمت أنوف، ويمكن القول إنَّ كلاً منهم عندما حضر إلى الاجتماع الذي تمَّ تعيينه بعد شهر، جاء بصفته أميناً عاماً لحزبٍ جديدٍ وليس كعضوٍ في اللجنة أو المكتب. حقَّاً، لدى الإمبراطور مستشارون عباقرة.

في معمعة الصراع الأيديولوجي بين ذوي الشوارب المستعارة مختلفة الأشكال، يمكن القول إنه لم يبقَ قائدٌ لم يسقط من أعين الجماهير، ولذلك فعندما خرج الإمبراطور إلى هذه الجماهير بشاربين مستعارين كخنجرين ينبثقان من تحت أنفه، وخلفه ظهر

المستشارون يرتدون شواربَ من نفس الموديل، وأعلن عن تشكيل حزب الشوارب الوطني الديمقراطي، لم تشرق شمس صباح اليوم التالي حتَّى كانت نسبة تسعين في المئة من جماهير أحزاب الشوارب قد التحقت بحزب الإمبراطور، خاصَّةً وأنَّ أيَّ عضوٍ ينتسب إلى حزب الإمبراطور يحصل على شوارب بالمجان، ولسنا في حاجة إلى تعداد الميزات الأخرى التي يحصل عليها أصحاب الشوارب الإمبراطورية.

ولكي لا تشعر بقيَّة الأحزاب بالغبن ممَّا قد يدفعها إلى توحيد صفوفها من جديد، فقد أعلن الإمبراطور، ولأوَّل مرَّةٍ في تاريخ الإمبراطوريَّة، عن إجراء انتخاباتٍ برلمانيَّةٍ يشارك فيها الجميع، ثمَّ ظهرت قوائم المرشَّحين التي عرف فيها الشعب ما معنى كلمة تحالفات، حيث انضمَّ عدد من الأحزاب السابقة إلى حزب الإمبراطور مشكِّلين معه حلفاً لخوض الانتخابات البرلمانيَّة، وفي الوقت عينه تشكَّلت تحالفاتٌ أخرى ولكنها لم تحصل على أكثر من واحدٍ في المئة من الأصوات، فوصل عن بعضها نائبٌ واحدٌ دخل التاريخ، بينما بقي الكثير منها خارج اللعبة البرلمانيَّة.

ولكي لا يبقى أحد خارج سيطرة القبضة الإمبراطوريَّة، فقد دعا الإمبراطور الأحزاب الساقطة في الانتخابات إلى المشاركة في الوزارة الجديدة التي أراد لها الإمبراطور، بحسب الصحف المحليَّة، أن تمثِّل قطاعات المجتمع كافَّةً، فانضم هؤلاء إلى

الوزارة عن طيب خاطر، وسارت الأمور على ذلك النحو ردحاً من الزمن لم نعرف ما جرى بعده.

أهمُّ شيءٍ في الموضوع أنَّ الشوارب المستعارة أصبحت هي الشوارب الوحيدة المسموح بحملها، ولذلك فقد كان على كلِّ شخصٍ حين يمرُّ بحاجزٍ أو دوريَّةٍ أن يرفع شاربيه للدلالة على عدم وجود شواربَ حقيقيَّةٍ تحتها. ومع الزمن، ولكي لا يبقى هذا الطقس يحمل في ثناياه شيئاً من الإذلال، فقد أصبح الناس يتبادلون التحيَّة برفع الشوارب، وعندما يمرُّ أحدهم قرب الآخر يرفعان لبعضهما الشاربين ثمَّ يعيدان لصقهما، وعندما يريد أحد أن يبدي إعجابه بأحدٍ آخر يقول:

يُرفع له الشاربان.

1990

نهاية أولى غير معروفةٍ لقصَّةٍ معروفة

(الحذاء)

الجميع يعرفون قصَّة «سندريلا» وما جرى لها مع الأمير، والعزُّ الذي يُفترض أنها عاشت فيه بعد أن تحوَّلت من خادمة إلى أميرة. ولكن كعادة المؤرِّخين، لا ينقلون إلينا الجزء الأسود من القصة، وهذا ما فعلوه مع «عبد اللطيف» الذي أصبح رأسه مطلوباً بعد العثور على «سندريلا» بدقائق.

بسبب الفرح الذي كان يسيطر على الأمير بعد عثوره على حبيبة قلبه «سندريلا»، لم يكن يسيطر على سرعة عربته التي يجرُّها ستَّة عشر حصاناً، شاقَّةً الطرقات نحو القصر وكأنها ريحٌ عاتية، ولذلك لم يستطع «عبد اللطيف» أن يبتعد عن الطريق الذي كان في وسطه

متجهاً إلى طرفه المقابل، ولولا لطف الله لكانت عجلات العربة فرمته وحوَّلته إلى عشرين قطعة.

نهض «عبد اللطيف»، وقبل أن ينفض الغبار العالق على ثيابه صرخ موبِّخاً السائق:

* «انتبه يا بني آدم!».

لم يكن «عبد اللطيف» يعرف من هو السائق، ولم يكن يتوقَّع أبداً أنَّ العربة ستفرمل ويترجَّل منها أربعة رجال يرتدون ملابس المرافقة السوداء، ليصرخ به أحدهم:

- «تعال إلى هنا أيُّها الوغد!».

أدرك «عبد اللطيف» عندما شاهد هؤلاء أنَّ قدره قد كشَّر له عن أنيابه، وقال في سره: «ليت عجلات العربة فرمتني وأراحتني من هذا المصير!»، ولكنَّ الروح غاليةٌ، والحيوان لا يمكن أن يستسلم للموت حتى لو سدَّت عليه الوحوش جميع منافذ الهرب. و«عبد اللطيف» الذي كان يشعر أنه الآن حيوانٌ بكلِّ ما تعنيه الكلمة من معنى، فكَّر في الطريقة نفسها، ودفعه صراع البقاء لكي يسلِّم ساقيه للريح.

لحق الرجال الأربعة بـ«عبد اللطيف» بسرعةٍ هائلةٍ يبدو أنهم تدرَّبوا كثيراً لبلوغها، ولو تهيَّأ لهم وشاركوا في بطولات الجري لما كان لهم منافسٌ على المراكز الأربعة الأولى، ولكنَّ التدريب

مهما كان طويلاً ومتقناً، وحتى المنشِّطات التي مهما بلغت فاعليَّتها فإنها لا توازي الخوف بدفع السرعة إلى أقصى مستوياتها، ولذلك فقد تمكَّن «عبد اللطيف» من جعل المسافة التي بينهم تزداد رويداً رويداً إلى أن خُيِّل إليه أنهم فقدوا أثره، ولكن ومن باب الحيطة تابع ركضه إلى الأمام لكي يقطع الشك باليقين، وكما حدث مع «سندريلا» حدث مع «عبد اللطيف»، فقد أفلتت فردة حذائه اليمنى من قدمه، وبسبب السرعة التي كان يجري بها فقد قطع عدَّة أمتارٍ قبل أن يشعر بذلك، فتوقَّف وقرَّر العودة لالتقاطها، ولكنه لم يكمل خطوته الأولى إلى الوراء حتى شاهد الرجال الأربعة يخرجون من خلف المنعطف بالسرعة نفسها التي انطلقوا فيها، فأدرك أنهم لم يفقدوا أثره كما تهيأ له، (إنهم لا يفقدون الأثر) قال لنفسه ولم يتورع عن التضحية بفردة حذائه وأطلق ساقيه للريح.

عندما وصل الرجال الأربعة إلى فردة الحذاء توقفوا وتناولها أحدهم وقرَّروا العودة إلى المقر، فخبرتهم في البحث عن «سندريلا» تجعلهم يتمكَّنون من اكتشاف هذا الرجل الذي كانوا يجهلون أنَّ اسمه «عبد اللطيف».

ضرب الأمير بقوَّةٍ على سطح الطاولة، ضربةً اهتزَّتْ لها أركان العرش. وصاح بصوت بثَّ الرعب في قلب «سندريلا» وجعلها تتمنَّى لو بقيت خادمةً عند زوجة أبيها:

«قيسوا الحذاء على أرجل الجميع!».

وقبل صياح الديك كان الخبر قد تفشَّى في أوساط الجماهير ودبَّ الرعب في البلد، خاصَّةً وأنَّ أحداً لا يعرف مقاس فردة ذلك الحذاء المشؤوم. لم يغمض لرجلٍ جفنٌ خوفاً من أن يُطابق الحذاء مقاس رجله، وأخذ كلٌّ يبحث عن مهربٍ من هذه الورطة التي تكلِّف رقبة، ففكر بعضهم في الهرب من المدينة ريثما تمرُّ العاصفة، ولكنهم سرعان ما تخلَّوا عن هذه الفكرة بعد أن اكتشفوا أنَّ مفارز الحراسة قد أغلقت جميع أبواب المدينة ومنعت أحداً من الخروج أو الدخول.

ومثلما دفع الخوف «عبد اللطيف» لكي يكون أسرع رجلٍ في العالم فقد دفعه لكي يكون أذكى رجل في العالم أيضاً، خاصَّةً وأنه بخلاف الآخرين يعرف أنَّ فردة الحذاء ستطابق مقاس رجله، وتوصَّل إلى طريقةٍ تخلِّصه من الخضوع للاختبار المنتظر، فتناول عصا وأخذ يضرب بها رِجْله اليمنى حتى هشَّمها، وساعدته بذلك زوجته بدافع الحب. ومثلما سرت شائعة الحذاء بسرعة تفشَّت وصفة «عبد اللطيف»، وقبل أن تُشرق خيوط الصباح الأولى كان جميع رجال المدينة يسيرون على عكَّازاتهم الخشبيَّة بعد أن قام كل منهم بكسر رجليه، فهم لا يعرفون أية فردة حذاءٍ أفلتت من رِجْل ذلك الكلب (هكذا كانوا يسمُّون الرجل المجهول الذي سبَّب لهم هذا البلاء والذي هو «عبد اللطيف»).

وأمام كوَّة الغرفة التي خُصِّصت لإجراء الاختبار في اليوم

التالي كان يصطفُّ طابورٌ مكوَّنٌ من آلاف الرجال الذين يتكئون على عكَّازاتهم بأرجلٍ ملفوفةٍ بالجصِّ، منتظرين ما الذي سيفعله رجال الأمير، أما خلف الكوَّة فقد كانت تبدو وجوه رجال الأمير حائرةً فيما تفعله.

سأل أحد رجال الأمير الآخر:

- «ماذا سنفعل الآن؟».

* «سننتظر حتى ينزعوا الجصَّ عن أرجلهم».

أجابه الآخر وتناول فردة الحذاء القرينة ونهض، ثمَّ خرج رجال الأمير من باب الغرفة كلٌّ يتكئ على عكازيه ويجرُّ رجليه المضمَّدتين بالجص.

ومنذ ذلك اليوم وحرَّاس الأمير ينتظرون أن يُنزع الجصُّ عن أرجل الرعيَّة، ورجال البلد يكسرون أرجلهم كلما تماثلت للشفاء، على الرغم من أن «عبد اللطيف» قد مات في نهايةٍ أخرى غير معروفةٍ لقصَّةٍ أخرى غير معروفةٍ أيضاً.

1991

نهايةٌ ثانية غير معروفةٍ للقصَّة المعروفة

(الشقيقتان)

بعد أن أصبحت «سندريلا» زوجةً لوريث العرش الإمبراطوري، دبَّ الرعب في قلب زوجة أبيها التي كانت متأكِّدةً من أنَّ أوَّل ما ستفعله «سندريلا» بعد نهاية شهر العسل هو الانتقام منها ومن ابنتيها الظالمتين. ولذلك فقد حملت ما استطاعت حمله وأخذت ابنتيها على وجه السرعة إلى بلادٍ بعيدةٍ لا تصل إليها يد الأمير، ولم يطل بها الأمر هناك حتى ماتت قهراً لما لحق بها.

على الرغم من أنَّ أيَّ رجلٍ لم يغامر بطلب يد أيٍّ من الفتاتين في تلك البلاد البعيدة بسبب قبحهما، إلا أنَّ الفتاتين كانتا كلَّ يومٍ تبدِّلان الثياب وتقفان أمام المرآة ساعاتٍ طويلةً تمشِّط إحداهما

شَعر الأخرى أو تشدُّ لها حزام الخصر الذي لم يعد يفلح في إظهار خصر أيٍّ منهما.

وحتى بعد أن أصبح عمر الكبرى خمسين عاماً والصغرى تسعاً وأربعين، فقد ظلَّتا تفعلان ذلك في انتظار عريسٍ يقرع الباب.

إلى أن جاء ذلك اليوم الذي لمع فيه بريق الأمل، فقد كانت الصغرى تكنس البيت حينما لمحت من شقٍّ بين ستارتي النافذة شاباً يقف على شرفة المبنى المجاور ويراقبها. ولأنها كانت في لباس المنزل الذي اعتبرته غير لائقٍ للظهور به أمام العرسان، فقد أغلقت الستائر بسرعة وركضت إلى الداخل.

لم تعط الأخت الكبرى التي كانت تحوك شيئاً ما أيَّ اهتمام للموضوع عندما عادت الصغرى في أفضل لباس لها، بل وضعت الكنفة من يدها وتهيأت لتمشِّط شعر أختها أمام المرآة كما هي العادة، ولكن حين ذهبت الصغرى باتجاه النافذة وبدأت تراقب شيئاً ما من الشقِّ الذي بين الستارتين ظنَّت الكبرى الظنون وسألتها:

- «ماذا هناك؟».

* «لا شيء... تابعي الحياكة».

قالت الصغرى محاولةً عدم إثارة فضول أختها، ثمَّ تابعت المراقبة من خلال الشق.

حاولت الكبرى أن تسترق نظرة، ولكن الصغرى دفعتها إلى الخلف برفقٍ وطلبت منها ألا تفسد عليها ما هي فيه.

غير أنَّ الفضول كان أكثر قوَّةً من ذلك الرجاء، ما جعل الكبرى تشدُّ الصغرى إلى الخلف في محاولة للنظر من بين الستائر.

نشب بين الشقيقتين شجار انتهى بهما لاهثتين على الأرض وقد نُفش شعر كلٍّ منهما وتمزَّقت ثيابهما، دون أن تتمكَّن إحداهما من الوصول إلى النافذة.

توسَّلت الصغرى أختها بدموعٍ حارَّةٍ أن تتركها وشأنها، وأشفقت عليها الكبرى ووعدتها بذلك، ولكن بشرط أن تخبرها عمَّا تراقبه.

- «الأمير... يقف على شرفة المبنى المقابل، يراقب نافذتنا».

قالت الصغرى آملةً أن تطفئ لهيب الفضول الذي كان يتَّقد في نفس أختها، ولكن هذه عندما أدركت أنَّ الأمير يقف على الشرفة المقابلة تشبَّثت بموقفها أكثر، وأصرَّت على مشاهدته، بحجَّة أنه جاء من أجلها لا من أجل أختها.

عندها لم تجد الصغرى بدَّاً من تناول سكِّينٍ أخفته تحت ثوبها تحسُّباً لمثل هذا الموقف وتمترست خلف النافذة مهدِّدةً أختها بالقتل إذا حاولت الاقتراب من النافذة.

بكت الكبرى طويلاً ولكنَّ الصغرى لم تشعر بأيِّ شفقةٍ نحوها:

- «لقد جاء الأمير بحثاً عني...».

* «بل بحثاً عني».

-«إذا شاهد قباحتك في النافذة سيهرب بعيداً... ستفسدين الأمر».

* «انظري إلى نفسك في المرآة وستدركين من هي القبيحة».

لم تتعب الفتاتان من نعت بعضهما بكلِّ ما تكره الأذن سماعه من اللسان، وتصاعد الحوار ليصبح مبارزةً بالكلمات البذيئة، كانت الصغرى تسترق خلالها النظر من بين الستارتين لتتأكَّد من وجود الأمير على الشرفة المقابلة، وتعلن بعد كلِّ مرَّة:

-«إنه يبتسم لي، لو جاء من أجلك لما فعل ذلك».

* «لأنه يظنك أنا، ما أدراه عينُ مَن منا تلك التي تطلُّ من شقِّ الستارة؟».

بعد زمنٍ أدركت الصغرى أنها لن تقنع أختها، وقبلت باقتراح الكبرى أن يقوما بدعوة الأمير وجعله يختار واحدةً منهما، خاصَّةً وأنها كانت واثقة بأنها أجمل من أختها بكثيرٍ وأنَّ الأمير لن يتردَّد في اختياره لها.

أخفت الصغرى السكِّين تحت ثوبها من جديدٍ واقتربت الكبرى من النافذة وفتحت الاثنتان الستارة بشكلٍ كامل.

وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك شرفة ولم يكن مبنى مقابل نافذتهم، فقد ابتسمت الكبرى للأمير، ودعته بإشارةٍ من يدها أن يقوم بزيارتهما، وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك أميرٌ فقد شاهدته

الفتاتان يعدهما بإشارة من يده بأنه سيأتي بعد الثانية عشر ليلاً، وعلى الرغم من أنَّ الرجال لا يزورون النساء بعد منتصف الليل لغاياتٍ شريفةٍ، فقد وافقتا بسرورٍ وانتظرتاه. وعلى الرغم من أنَّ الساعة قد أصبحت الخامسة والخمسين بعد منتصف الليل، إلا أن الفتاتين لا تزالان في ثوبيهما الأبيضين تنتظران على أحرٍّ من الجمر، تُمشِّط إحداهما شَعر الأخرى وتشدُّ لها حزامها كلَّما تراخت خيوطه، وتنظران إلى عقارب الساعة.

1991

ذنب البقرة

ربما كان الاثنان من بطن حوَّاء إذا صدقت الأسطورة، وربما كانا من مكانٍ آخر، ولكنهما بدون شكٍّ كانا ينتميان إلى أوَّل قطيعٍ بشريٍّ يصل بحضارته إلى تغطية وسطه بالقش.

دبَّ الخلاف بينهما عندما اكتشف الأوَّل أنَّ الثاني يقطف ثمرةً من شجرة التين التي كان يعتبرها ملكاً له، فاعترض على ذلك وطلب منه عدم تكرار الأمر، إلا أن الثاني بصق على الأرض هازئاً بكلامه وأكَّد أنَّ شجرة التين تقع في أرضه.

دارت بين الاثنين معركةٌ حامية الوطيس ظنَّ الأوَّل كما ظنَّ الثاني أنها ستنتهي بنصرٍ له، قبل أن يظهر شخصٌ ثالثٌ من ذلك القطيع البشري، ويفضُّ الشجار بينهما.

سأل الثالث عن سبب العراك فشرحا له الموضوع، ولم تمضِ

دقيقةٌ حتَّى عثر لهما على حلٍّ يرضي الطرفين معاً، حيث طلب حبلاً وقام بربطه إلى ساق شجرة التين ثمَّ مدَّه إلى ساق شجرةٍ أخرى قاطعاً به الكرة الأرضيَّة إلى نصفين، وأعلن أنَّ ما يقع إلى شمال الحبل هو ملكٌ للأوَّل وأنَّ ما يقع جنوب الحبل هو ملكٌ للثاني. وهكذا انتهى الخلاف بين الأوَّل والثاني وأصبحت الأمور واضحةً لكليهما. ولولا تلك البقرة لربما تطوَّرت الحضارة بشكلٍ آخر وربَّما حدث في التاريخ أشياء أخرى غير التي نقرأ عنها أو نراها الآن، فقد كانت تلك البقرة تقف بين شجرة التين والشجرة الأخرى وقام الثالث بتمرير الحبل من تحتها عندما رسم الحدود.

لقد كان وجود البقرة في ذلك المكان صدفةً غيَّرت وجه التاريخ فعلاً، فالحبل الذي قسم الأملاك قسم تلك البقرة في الوقت نفسه، فأصبح نصفها الأماميُّ الواقع جنوب الحبل ملكاً للثاني حيث كانت تدير رأسها نحوه، ونصفها الخلفيُّ الواقع شمال الحبل، ملكاً للأوَّل الذي كانت تدير له ذنبها، وهكذا أصبح الثاني مسؤولاً عن إطعامها، والأوَّل مسؤولاً عن حلبها.

ومضت الأيَّام على هذا الشكل، فكان الأوَّل كلَّ يومٍ يأتي بأوانيه ليملأها بالحليب، والثاني يأتي بالحشائش لكي تأكل البقرة، وكان الثالث يأتي كلَّ يومٍ ليطمئن على أن الأمور تجري على ما يرام، فيسأل:

- «هل كلُّ شيءٍ على ما يرام؟».

فيجيبه الاثنان بالإيجاب ويقدِّم له الأوَّل كوباً من الحليب.

وبعد أشهر وبينما كان الثاني يضع الحشائش أمام البقرة، شاهد الأوَّلَ قادماً من بعيدٍ يحمل أواني الحليب الفارغة ليملأها، ولكنه لاحظ تطوُّراً جديداً في هيئته، فبدلاً من حزمة القش التي كان يغطِّي بها وسطه، ارتدى قطعةً قماشيَّة، والذي أدهشه أكثر أنَّ الثالث جاء بعد قليلٍ ليسأل سؤاله المعتاد وقد ارتدى هو الآخر قطعة قماشيَّةً بدلاً من القش.

سأل الثاني:

- «من أين أتيت بهذا القماش؟».

* «بعتُ الحليب واشتريتُ قماشاً».

بعد أيَّامٍ شاهد الثاني تطوُّراً جديداً، فقد ظهر في رِجْل الأوَّل نعلٌ، وكذلك في رِجْل الثالث الذي جاء يسألهما إن كان كلُّ شيءٍ على ما يرام.

ثمَّ تطوَّرت الأحوال تدريجيَّاً، فاكتسى الأوَّل بشكلٍ كاملٍ كما اكتسى الثالث بشكلٍ أقلَّ بينما بقي الثاني بحزمة القشِّ اليابس التي كانت تغطِّي وسطه، وبما أنه كان قد اعتاد على هذه التطوُّرات فإنَّ الدهشة كانت تقلُّ يوماً بعد يوم.

إلا أنَّ الدهشة ارتسمت لسببٍ آخرَ فيما بعد، فقد أصبح الثالث يكتفي بسؤال الأوَّل فقط إن كان كلُّ شيءٍ على ما يرام، ويتجاهله

تماماً، وبعد فترةٍ ازدادت الدهشة حين أصبح الثالث يضيف كلمة (سيِّدي) عندما يخاطب الأوَّل، ثم ازدادت أكثر عندما أصبح الأوَّل يردُّ على استفسارات الثالث بتعالٍ، وازدادت أكثر عندما أصبح يكلِّفه بمهام مختلفةٍ مثل حمل الآنية ونقلها، وتحوَّل إلى ما يشبه الخادم له.

ووصلت الدهشة إلى حدِّ الصدمة عندما جلب الأوَّل ثوراً لقَّح البقرة التي حملت ثمَّ أنجبت عجلاً وعجلة سقطا في أرضه فأصبحا ملكاً له، على الرغم من أنَّ أكثر من نصف الرحم الذي حمل التوأم كان فوق أرض الثاني، وتوالت الثيران على البقرة حتى امتلأت أرض الأوَّل بالبقر.

ولكنَّ مشاعر الثاني تجاوزت مرحلة الدهشة إلى ما قبل الجلطة حينما صرخ الأوَّل ردَّاً على سؤال الثالث في أحد الأيَّام إن كان كلُّ شيءٍ على ما يرام أم لا:

- «لا... ليس كلُّ شيءٍ على ما يرام... - ثم أشار إلى الثاني وتابع بقرف - إلامَ سيبقى هذا البدائيُّ شريكي؟».

تناول الثاني عصا وأراد أن يهوي بها على رأس الأوَّل بعد أن قرأ في كلامه طمعاً بحقوقه وإهانةً لكرمه، ولكنه فوجئ بالثالث يشهر في وجهه سيفاً ويعلمه أنَّ أمواله مصادرةٌ باسم القانون، وهكذا سمع الثاني لأوَّل مرَّةٍ في حياته بشيءٍ يُسمَّى الشرطة، ورضخ لقدره مرغماً، ومن يومها أصبح الأوَّل إمبراطوراً والثاني

رعيَّة، أبناء الأوَّل أباطرةٌ يحلبون البقرة، وأبناء الثاني رعاعٌ يطعمون البقرة، وأبناء الثالث رجال أمنٍ يحرسون البقرة من أطماع الرعاع.

ماذا كان سيحدث يا ترى، لو أنَّ البقرة كانت تدير ذنبها في الاتجاه المعاكس عندما رُسِمت الحدود؟

1992

الصورة

لا أحد يعرف أي معتوه من حاشية الإمبراطور خلق هذه العادة، ولكنَّ صورة الإمبراطور أخذت تزيِّن الجدران والأبواب ومداخل ومخارج المدن وكلَّ شيء عدا المراحيض وبيوت الدعارة. وللحقيقة والتاريخ فإنَّ ذلك كان يحدث بشكلٍ طوعيٍّ ولم يكن مفروضاً على أحدٍ أن يعلِّق صورة الإمبراطور على بابه أو في بيته، إلا أنَّ انتزاع تلك الصورة من المكان الذي علِّقت فيه لم يكن أمراً طوعيّاً أبداً، فبما أنها عُلِّقت يجب أن تبقى مكانها، وإذا انتزعتها فعليك أن تثبت أنك علَّقتها من جديدٍ في مكانٍ أكثر ملاءمة.

أنا شخصياً لم أعلِّق صورة الإمبراطور، ليس لأنني أكره الإمبراطور، فأنا والحقُّ يقال كنت لا أحبُّه بنفس القدر الذي كنت

لا أكرهه فيه، ولكن يُخيَّل إليَّ أنني إذا علَّقت صورته على الجدار فإنه سيصبح بمثابة الشبح الذي يراقب كلَّ تصرُّفٍ أقوم به، ربَّما لن أتمكَّن من النوم، وبالتأكيد لن أشعر بالمتعة أبداً عندما أراه يحدِّق فيَّ وأنا أرتشف قهوة الصباح، والأنكى من ذلك أنني لن أتمكَّن من فعل شيءٍ إذا قبلتْ امرأةٌ الدعوة إلى سريري، حيث يكفي أن أتذكَّره لكي أعجز عن فعل شيءٍ، فما بالك إذا كان يراقبني وأنا عارٍ مع تلك المرأة في السرير! إنَّ ذلك سيكون فضيحةً كبرى بالنسبة إليَّ! يمكن بالطبع أن أقلب الصورة باتجاه الحائط لكي أشعر بالحريَّة بعض الشيء، ولكن ما الضمانة في ألا تثرثر تلك المرأة؟ ولذلك يمكن القول إنني لم أعلِّق تلك الصورة لكي لا أشعر بالكراهية نحو الإمبراطور، وهذا في نهاية المطاف يصبُّ في مصلحته.

عندما استأجرت الشقَّة التي أسكنها اليوم ووجدتُ صورة الإمبراطور معلَّقةً على بابها لم أشعر بالغرابة، فقد حدث ذلك معي في عدَّة شققٍ أخرى. ومن جهة أخرى فإنَّ صورته لم تكن تثير اشمئزازي، فقد ألفتها منذ زمنٍ بعيد، وكونها من الخارج فقد كنتُ متحرِّراً من نظراته، بل على العكس كنت أشعر به حارساً يمنح الشقَّة بعض الحصانة.

الأمر الوحيد الذي كان يزعجني في وجود الصورة هو عدم ثباتها، وخشيتي من سقوطها لأسباب خارجةٍ عن إرادتي ممَّا قد

يدفع البعض إلى التوهُّم بأنني أنا من فعل ذلك، لا بل أن بعض المغرضين سيقول ذلك وخاصَّةً جاري الذي كان قد كلَّف رسَّاماً برسم صورة الإمبراطور على بابه، فكان سقوطها بذلك مستحيلاً.

سبب الخطر الذي كان يتهدَّد الصورة هو حالة الباب المتردِّية، فقد كان طلاؤه متشقِّقاً ومقشَّراً وخشبه منخوراً وهشَّاً. أمَّا الصورة فقد كانت زاويتها العليا ثقيلةً جدَّاً بسبب ما تجمَّع عليها من الصمغ الذي شكَّل طبقةً سميكةً، فكانت بفعل قانون الجاذبيَّة تتغلَّب على الصمغ فتنحني إلى الأسفل، وهذا ما كان سيؤدِّي إلى سقوطها في نهاية الأمر، إذا لم يقم أحد بمعالجتها.

في البداية قمتُ بلصقها بشريطٍ لاصقٍ ظننتُ أنه سيحلُّ المشكلة، ولكنني صباح اليوم التالي وجدتها وقد حنت زاويتها من جديدٍ بينما ظهر لون الخشب مكان قشرة الدهان اليابس الذي تقشَّر مع الشريط اللاصق. وضعت صمغاً ولكنَّ الصمغ لم يكن أفضل حالاً من الشريط اللاصق، حيث انحنت الصورة بعد يومين أو ثلاثة منتزعةً من الباب الهشِّ نشارةً خشبيَّة. فكَّرت في نفسي أنه لن يثبِّت الإمبراطور سوى المسامير، ولكن ورق الصورة المهترءة لم يكن يسمح للمسمار بتثبيت الصورة إلا إذا اخترق أذني الإمبراطور، حيث كان الورق لا يزال في حالةٍ جيِّدة، وهذا ما قد يُفسَّر أيضاً بشكلٍ غير صحيح، ممَّا اضطرني إلى دقِّ المسامير في الجزء البالي من زاوية الصورة لعلَّها تستطيع تثبيتها

حتى الصباح على الأقل. وكما توقَّعت فقد انحنت الصورة بعد أن تمزَّقت زاويتها وبقيت المسامير عاريةً في خشب الباب. فكَّرتُ في شراء صورةٍ جديدةٍ ولصقها مكان الصورة القديمة، ولكن الرعب دبَّ في قلبي عندما فكَّرت: (ماذا سأفعل بالصورة القديمة؟) فإذا انتزعتها عليَّ أن أعلِّقها في مكانٍ آخر، وبما أنَّ الباب لم يكن ليتَّسع لها مع الصورة الجديدة فقد كان لزاماً عليَّ تعليقها في الداخل، وهذا ما لم أكن أرغب فيه. فكَّرتُ في أن أمزِّقها وأرميها في القمامة، ولكن ماذا لو عثر عليها أحدهم؟ لا بد من أنهم سيعرفون مصدرها. فكَّرتُ في إحراقها، ولكن ماذا سأقول إن سألني أحد عنها؟ سيحرقونني حتماً. قرَّرت تركها وممارسة العذاب الذي اعتدت عليه بدلاً من كلِّ هذه الأفكار السوداء التي لا تُعرف نتيجتها.

مرَّت أشهر على هذه الحال، كلَّ يوم قبل أن أخلد إلى النوم أرفع بالصمغ رأس الإمبراطور لأستيقظ صباحاً فأجده وقد لوى عنقه، فأرفعه بالصمغ من جديد. وأكثر ما كنت أخشاه هو سقوط الإمبراطور أثناء غيابي، ولذلك فقد أصبحت أذهب إلى العمل متأخِّراً وأعود باكراً، وانعدمت زياراتي بشكل كلِّي تقريباً، ويمكن القول إنني طوال الفترة كنت عبداً لصورة الإمبراطور، بكلِّ ما تحمله كلمة العبد من معنى.

وذات ليلةٍ شتويَّةٍ عاصفةٍ، وكنتُ قد دفنتُ نفسي في الفراش

وأخذ النعاس يراود جفنيَّ، أخذت الريح تعصف بشدَّةٍ، وسمعت شيئاً يصطفق بالباب فعرفت ماهيَّته فوراً، لقد خلعت الريح زاوية الصورة. نهضت من فراشي مسرعاً وركضت نحو الباب وقد أدركت أنني سأقف حتى انتهاء العاصفة مثبتاً زاوية الصورة براحتي لأنَّ أيَّ شيءٍ آخر لن ينفع.

ولكنَّ العاصفة كانت أقوى مني فتمكَّنتْ من خلع الصورة التي سمعتُ صوت اصطدامها بالجدران قبل أن أخرج، ثمَّ شاهدتها تطير بعيداً عندما خرجت.

حِرتُ فيما أفعله، جاري سيسألني عن الصورة صباحاً، إنه ينتظر ذلك منذ زمنٍ بعيد، خاصَّةً وأنَّ كلَّ الذين سكنوا هذه الشقَّة قبلي خرجوا بسبب اتهاماته لهم بأنهم يتحرَّشون بزوجته، وأنا لم أكن استثناء، حيث كانت غيرته تدفعه إلى الاعتقاد بذلك على الرغم من أنني لم أصادف زوجته سوى مرَّةٍ واحدةٍ أمام الباب، فألقيت عليها التحيَّة ولم ترد.

اللحاق بالصورة واسترجاعها من قبضة العاصفة كان أمراً مستحيلاً فقد ابتعدتْ كثيراً، وترك المبادرة لجاري الغيور كان أمراً يشبه الجنون، فبدايته معروفة ونهايته معروفة، إنه عذابٌ ربَّما لن ينتهي إلا بنهايتي، ولذلك لم يكن أمامي بدٌّ من طرق باب جاري بقوَّةٍ جعلته يفتحه ويقف أمامي عارياً إلا من تلك القطعة التي تستر العورة من لباسه الداخلي، وعلى الرغم من أنَّ منظره بهذا الشكل

كان يبعث على الضحك إلا أن المناسبة لم تكن تسمح بذلك، كان عليَّ أن أعاجله بالهجوم قبل أن يسألني ماذا أريد، ولذلك فعندما فتح الباب صرخت على الفور في وجهه:

- «بأيِّ حقٍّ تخلع صورة جلالته عن بابي؟».

وقد حدث ما كنت أتوقَّعه، فقد دبَّ الرعب في أوصاله وأقسم أنه لم يفعل ذلك، وعندما لمح ورقة تتقاذفها الرياح تمرُّ تحت ضوء أحد المصابيح التي تنير الشارع صرخ كمن عثر على دليل براءةٍ من تهمةٍ خطيرة:

- «إنها الريح من فعل ذلك».

ثم ركض نحو ذلك المكان بلباسه الداخلي لعلَّه يلتقط الصورة. وعندما تجاوز ذلك المصباح واختفى في العتمة، عدتُ إلى غرفتي ودفنت نفسي في الفراش، ورحت في نوم عميق لم أفق منه إلا على طرقاتٍ خفيفةٍ على بابي. نهضتُ وفتحته لأجد زوجة جاري الغيور تسألني إن كنت قد شاهدت زوجها الذي خرج بعد منتصف ليل البارحة ولم يعد.

1996

بعد الهزيم

كلمة الإمبراطور في هذا العام لم تكن تختلف في شيءٍ عن كلمته في العام الماضي وفي مثل هذا التاريخ، ويمكن القول إنها نسخةٌ ثانيةٌ عن كلمة السنة الماضية كما كانت كلمة السنة الماضية نسخةً عن السنة التي قبلها، الذي حدث فقط هو تغيير التواريخ بما يلائم رقم هذه السنة.

الشيء الوحيد الذي اختلف هذا العام عن العام الذي سبقه، هو أنَّ الإمبراطور كان بعد كلِّ فاصلةٍ وكلِّ نقطةٍ يتوقَّف أكثر ممَّا يفرضه علم اللغة، وكان إضافةً إلى ذلك يغمض عينيه وتتشنَّج عضلات وجهه لسببٍ مجهول، ثمَّ يتابع كلمته من جديدٍ بالحماسة نفسها التي كان عليها.

دارت ظنونٌ كثيرةٌ حول سبب تلك الوقفات وتلك التشنُّجات،

ولكنَّ أحداً لم يكن يتخيَّل السبب الحقيقيَّ لها، حيث لا يُعقل أن يحدث للإمبراطور ما يحدث لباقي بني البشر، فعلى الرغم من عدم محبَّة الكثيرين من رعيَّته له، إلا أنه وبفعل الموروث المترسِّب في لاوعيهم، كان الإمبراطور لا يزال يحمل علاقةً ما بالآلهة، خاصَّةً وأنه كان ينافس الآلهة، وملاك الموت تحديداً، بعدد الأرواح التي يخطفها كلَّ عامٍ بمبرِّرٍ وبدون مبرِّر. ولكنَّ سبب التوقُّفات التي كانت تتخلَّل كلمة الإمبراطور كان الشيء الوحيد الذي لم يتوقَّعه أحدٌ من الرعيَّة الجاهلة.

لقد كانت بطن الإمبراطور مليئةً بالغازات إلى درجة لا تُحتمل، وسبب توقُّفه الزائد عن الكلام بين الفينة والأخرى مستغلاً الفواصل والنقاط، كان سعي الإمبراطور إلى تصريف هذه الغازات بشكلٍ منتظم، أما تشنُّج عضلات وجهه فقد كان سببه سعي الإمبراطور إلى السيطرة على الأمر بحيث لا يصدر صوتاً.

وقد كاد ينهي كلمته بنجاحٍ لولا أن خانه الحظ في آخر مرَّةٍ، فصدر عنه ذلك الصوت الذي بذل كلَّ ما في وسعه لكي لا يسمعه أحد.

لم يكن الصوت قوياً لدرجة أن تسمعه الجماهير المحتشدة في ساحة القصر مصغيةً إلى كلمة الإمبراطور، ولا حتى ليسمعه أعضاء الوزارة الذين كانوا يقفون على بعد أمتارٍ خلف المنبر. ولكنَّ الأعين الساهرة التي كانت تلتصق بالإمبراطور من الخلف سمعت الصوت بوضوح، ولكي يغطِّي ما ظنَّ أنه فضيحة، قام

رئيس الحرس بالتصفيق بشكلٍ لا إرادي، وبما أنَّ واحداً صفَّق فعلى الجميع أن يفعلوا ذلك حكومةً وشعباً، فدوى تصفيقٌ حادٌّ لم تشهد كلمات الإمبراطور له مثيلاً.

ولأنَّ الإمبراطور كان صامتاً حين اندلع ذلك التصفيق، فقد كان كلٌّ يسأل الآخر عن السبب الذي جعلهم يصفِّقون، فقام رئيس الوزراء أوَّلاً بسؤال رئيس الحرس، وهمس له هذا مفسِّراً اللغز: «ضرط الإمبراطور».

وسرعان ما علم الوزراء بالسر الذي يقف وراء موجة التصفيق الحاد، ولم يلبث أن تسرَّب إلى الجماهير عن طريق التسلسل، وسادت لحظاتٌ كانت آلاف الأفواه فيها تهمس في آلاف الآذان بالسر: «ضرط الإمبراطور... ضرط الإمبراطور...».

كان ذلك فضيحةً كبرى للإمبراطور، خاصَّةً وأنَّ هذه كانت كلمته الأولى التي يدعو ممثلي الصحافة الأجنبية إلى حضورها، وتغطيتها، ولذلك فقد كان على أعضاء الوزارة أن يجدوا مخرجاً من هذا المأزق وإلا فإن تغيُّراً لا تُحمد عواقبه سيحدث في الإمبراطوريَّة، يكونون هم أوَّل ضحاياه.

اجتمعت الوزارة ودعت عدداً هائلاً من المختصِّين في مجالات النشاط البشري كافَّةً، بما في ذلك الفضاء والطبَّ البيطري، وتمَّ تشكيل خليَّة أزمةٍ من أهم الخبراء في البلد، هدفها الوصول إلى مخرج قبل أن يرسل الفجر خيوطه الأولى.

عملت الخليَّة جاهدةً لساعاتٍ طويلةٍ واستعرضت كلمة الإمبراطور عشرات المرَّات ودارت نقاشاتٌ حادَّةٌ حول الكثير من الاقتراحات التي ثبت فشلها بسرعة. وعندما سادت قناعةٌ راسخةٌ لدى غالبيَّة أعضاء الخليَّة بعدم جدوى البحث، تكلَّم خبيرٌ مغمورٌ في السياسة الدوليَّة ظلَّ صامتاً طوال الوقت، لقد اكتشف مصادفةً غريبةً ولكنها هديَّةٌ قدَّمها القدر، فقد صادفت ضرطة الإمبراطور مباشرةً بعد ذكر اسم الإمبراطور المجاور الذي يُعتبر العدوَّ التاريخيَّ للإمبراطور المحلي، إذاً فإنَّ الإمبراطور فعل ذلك قاصداً وعن عمد، ولم تكن حركةً لا إراديَّةً أملتْها على جلالته عضلاتٌ رخوةٌ في ذلك الجزء من بدن جلالته كما يمكن أن يتصوَّر الحاقدون. هذه هي النتيجة التي توصَّلت إليها اللجنة ورفعت بخصوصها مذكرةً رسميَّةً إلى رئاسة مجلس الوزراء الذي رحَّب بها وتبنَّاها، وتبنَّى الاسم الذي أطلقته خليَّة الأزمة على الضرطة الإمبراطوريَّة لكي تمنحها بعض الهيبة، فقد اقترح أحدهم تسميتها بالهزيم مشبهاً إياها بالرعد القاصف، فوافق الجميع. ولفرط حماس أحدهم فقد اقترح أن يضفي عليها صفة من صفات البرق أيضاً، إلا أن أفراد الخلية وقفوا ضدَّ المبالغة في الموضوع، كون الضرطة لم يصدر عنها أي بريقٍ أو لمعانٍ يبرِّر تشبيهها بالبرق.

في اليوم التالي خرجت جميع الصحف بالعنوان نفسه تقريباً،

وهو العنوان الذي وزعته وكالة الأنباء الرسميَّة للخبر الأساسي الذي أوصت بأن يحتلَّ الصفحة الأولى منها جميعاً، ويقول بالحرف الواحد: (الهزيم مصطلحٌ جديدٌ يضاف إلى لغة العلاقات الدوليَّة)، أمَّا فحوى الخبر فهو أنَّ الإمبراطور المعادي لا يستحق الخطاب إلا بهذه اللغة.

تدفَّق على الصحف سيلٌ هائلٌ من التحليلات السياسيَّة التي تناولت الموضوع من وجهات نظرٍ فلسفيَّةٍ وفكريَّةٍ مختلفة، أُغلقت الصفحات الثقافية وتمَّ التخلِّي عن الإعلانات التجاريَّة لاستيعاب هذا الكم الهائل من التحليلات، ولكي لا يفقد الشعراء أماكنهم في الصحافة بدأت تظهر قصائد المديح، وسرعان ما تبنَّى البعض هذا الصوت كموضوع لرسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه، ولم تبخل الأكاديميَّة العلميَّة ومراكز البحوث بدراسة تأثير ذلك الهزيم على الطبِّ والاقتصاد وغزو الفضاء وحتى على التجارب النوويَّة، فأصدرت عشرات، بل مئات الأبحاث الخاصَّة بذلك. وبعد فترة ظهرت عدَّة أفلامٍ سينمائيَّةٍ تتحدَّث عن الموضوع، وسرعان ما أعقبتها عدَّة دراساتٍ نقديَّةٍ عن تأثير ذلك الصوت على تطوُّر الفنِّ السابع. ولكنَّ المؤرِّخين كانوا الأكثر نجاحاً بين جميع أبناء طبقة «الانتلجنتسيا»، فقد استطاعوا بفترةٍ زمنيَّةٍ قصيرة جعل الصوت منطلقاً للتاريخ، فأصبحتَ عندما تقرأ عن حدثٍ ما، تشاهد في الأسفل تاريخ حدوثه بأحرف مختصرة (2 ق هـ) أي العام الثاني

قبل الهزيم أو (27 حزيران / 1 ب هـ) أي العام الأول بعد الهزيم، والهزيم كما أسلفنا هو الاسم الرسمي الذي أطلق على الصوت بعد الاجتماع الساخن لخلية الأزمة المذكورة آنفاً.

أما الإمبراطور الخصم الذي حاولت صحافته في البداية أن تسخر من هذا الهزيم، فقد أخذ يشعر بالحسد من جاره على هذا النجاح الذي حقَّقه، وقرَّر أن يردَّ الصاع صاعين، وعندما حان موعد إلقاء كلمته طلب من مساعديه وضع الميكروفونات أسفل الخصر، ومن الخلف، ولأنَّ كافَّة التقنيات الصوتيَّة قد وضعت في خدمة الإمبراطور المعادي فإنَّ الصوت الصادر عنه لم يكن ضعيفاً كما حدث مع عدوِّه، وإنما كان في كلِّ مرَّةٍ يصدر دويَّاً هائلاً يلاقى بصيحات النصر من الجماهير المحتشدة في الأسفل.

ومنذ ذلك اليوم لم تعد الأباطرة تتحدَّث بأفواهها.

حُرِّرتْ في 26/5/15 ب. هـ.

المسيو جاك مات

حين اقتادوه قبل الفجر من فراشه أدرك أنهم لم يفعلوا ذلك لو أنه لم يرتكب شيئاً ما، ولكنه لم يستطع أن يعرف بالتحديد ما هو هذا الشيء، ولذلك أعمل ذاكرته بحثاً عنه.

في التجمُّعات العامَّة كان يكثر المديح لكلٍّ من يشكِّل ذمُّه جريمةً نكراء، وتحديداً الإمبراطور، وكان يمعن في ذلك لدرجة تصل إلى حدِّ التأليه. لم يحصل على جائزةٍ لقاء ذلك، ولكن لا يعقل أنهم ألقوا القبض عليه لهذا السبب.

بين الأصدقاء، وعلى الرغم من ثقته بهم، كان يصمت. وإذا تفوَّه صديقٌ بكلمةٍ ما عن هؤلاء الذين لا يجوز التفوُّه بحقِّهم إلا بالكلام الجميل، والإمبراطور على وجه الخصوص، كان يدافع عنهم أمام ذلك الصديق بشكلٍ مستميتٍ، وسرعان ما يقطع علاقته

به، لدرجة أنه في النهاية لم يعد له أصدقاء. لم يشكره أحد على فعله هذا، ولكن لا يعقل أنهم يقتادونه لهذا السبب.

صور جلالة الإمبراطور كانت تزيِّن جميع غرف منزله، الكبيرة في الإطارات الخشبيَّة المذهَّبة على الجدران، والصغيرة في الإطارات التي يُمكن اعتبارها بحقٍّ تحفاً فنيَّةً على الطاولات وفي الفاترينات المختلفة الموزَّعة في غرف المنزل، حتى أنَّ تمثالاً من البرونز لجلالته كان على ظهر خزانة الكتب التي تتصدَّر غرفة الضيوف والذي وضعه خصوصاً لكي يرى جميع زوَّاره من يكون وما هو موقفه السياسي، فيتجنَّبون الأحاديث غير المرغوبة، ولكن لا يُعقل أنهم يقتادونه لهذا السبب.

أقاربه جميعاً من ذوي السيرة والسلوك الحسن، ويتمتَّعون بعقولٍ راجحةٍ تجعلهم لا يرتكبون الأخطاء القاتلة. أبوه وأمُّه هما من علَّماه الصمت ولقَّناه أنَّ المديح هو الدواء الفعَّال ضدَّ زوَّار الفجر. الجدران والأثاث والهواء لا يمكن أن يتكلَّموا، وحتى لو تكلَّموا فلا شيء يقولونه، فهو حتى في وحدته يكيل المديح، عندما يشاهد التلفزيون يظنُّ أنَّ أحداً يراقبه ولذلك يعبِّر عن إعجابه تحسُّباً لكل الاحتمالات. نعم يُمكن أن يتمَّ إلقاء القبض عليه لما يدور في رأسه من أفكار سوداء يتمنَّى فيها أن تنشقَّ الأرض وتبتلعهم جميعاً، ولكن من أين لهم أن يعرفوا بهذه الأفكار التي لم تجد إلى لسانه طريقاً؟

لا، إنهم يقتادونني لسبب آخر - فكَّر في نفسه - ربَّما عثروا على خطأ في الحسابات في العمل، ربَّما تعرَّضت إحدى المباني التي وضعت مخططاتها لخللٍ ما، ربَّما تكون تلك الزجاجة التي سقطت عن حافَّة النافذة قد وقعت على رأس أحدهم فسبَّبت له الأذى وربَّما قتلته... ولكن لا... إنهم لا يقتادون اللصوص والقتلة بهذه الطريقة، لا يأتون لأخذهم قبل الفجر، وعدا عن ذلك فهم لا يطمِّشون أعينهم بعصابات سوداء، لا بد من أن الذي اقتادوني لسببه أمرٌ أخطر من السرقة، وأخطر من القتل.

وبما أنه لم يتمكَّن من العثور على مثل هذا الأمر الخطير فقد تركه للوقت لكي يكشف له ذلك السر، والوقت لم يطل، ففي الصباح كان يقف أمام المحقِّق الذي ألقى عليه نظرةً شاقوليَّةً من الأسفل إلى الأعلى شعر أنها منشارٌ كهربائيٌّ يقطعه إلى نصفين، ممَّا جعل كلَّ مفاصله ترتعد وقلبه يبالغ في الخفقان والعرق يتصبَّب من جبينه على الرغم من الجفاف الذي أصاب حنجرته لدرجة أنه ظنها من الخشب.

- «من هو المسيو جاك؟».

سأله المحقِّق واثقاً، فلم يزد على الغموض إلا غموضاً، فهو لم يسمع بشخصٍ بهذا الاسم من قبل، ولذلك فقد نفى معرفته به، ولكن ذلك كما هو مألوفٌ في غرف التحقيق، لم يرضِ المحقِّق الذي هدَّده بنبرةٍ واثقة: «لا تكذب، نحن نعرف كلَّ شيء».

وبسبب الثقة التي كان يتحدَّث بها المحقِّق فقد تمنَّى لو أنه يعرف شخصاً بهذا الاسم لكي يقول كلَّ ما يعرفه عنه وينهي هذه المعاناة المريرة التي يقع تحت هولها الآن. ولكنه مع الأسف لم يكن يعرف مثل هذا الشخص، ممَّا جعله يؤكِّد نفيه من جديد، الأمر الذي أثار حنق المحقِّق الذي ضرب بيده على الطاولة وصرخ:

- «لا فائدة من الإنكار، نحن نعرف كلَّ شيء».

عندما لم يجد ما يقوله ظلَّ صامتاً، ممَّا جعل المحقِّق يعتقد أنها بداية الانهيار فسأله: «المسيو جاك هل هو اسمٌ حقيقي أم اسمٌ حركي؟ ما هي مواصفاته، هل هو طويلٌ أم قصير؟ نحيفٌ أم سمين، ما لون عينيه؟».

وبما أنه لا يعرف الإجابة عن أيٍّ من هذه الأسئلة فقد صمت من جديد، ممَّا دفع المحقِّق إلى أن يفاجئه بحقيقةٍ جديدةٍ تجعل صمته بلا معنى:

- «نحن نعرف أنك تقابله، عليك أن تدلَّنا عليه لأنك لن تخرج من هذه الغرفة قبل أن تفعل ذلك».

عندها لم يجد بدَّاً من البكاء قائلاً:

* «أقسم لك يا سيدي أنني لا أعرف شخصاً بهذا الاسم».

تنفَّس المحقق بضيقٍ ينمُّ عن فقدان صبره، وفتح درجاً في طاولته أخرج منه رزمةً من صورٍ لرسائلَ متبادلةٍ بينه وبين «سوزان».

أمَّا «سوزان» فهي سائحةٌ أجنبيَّةٌ التقى بها منذ عامٍ على الشاطئ ونشأت بينهما علاقةٌ استمرَّت لأسبوع لم يتمكَّن لا هو ولا هي من نسيانه، فقد كان أفضل أسبوع من العمر لهما معاً، أسبوعاً كان فيه الشاطئ قطعةً من الجنَّة، ولذلك فقد تطوَّرت العلاقة إلى حبٍّ عنيفٍ تمخَّض عنه عددٌ كبيرٌ من الرسائل المتبادلة بينه وبينها بعد أن غادرت «سوزان» إلى بلدها، وما أخرجه المحقِّق من الدرج كان صوراً لتلك الرسائل بالتحديد.

- «في الخامس عشر من نيسان تسألك «سوزان» في نهاية الرسالة عن صحَّة (المسيو جاك)».

قال المحقِّق متأمِّلاً ضحيَّته التي يجب أن تقرَّ بالحقيقة بعد كشف هذا الدليل القاطع، ثمَّ سحب ورقةً أخرى من الرزمة وتابع:

- «في السادس عشر من نيسان تردُّ عليها قائلاً (المسيو جاك مشتاق إليك) وفي الثلاثين من نيسان تتلقَّى ردَّاً تؤكِّد فيه «سوزان» أنها أيضاً مشتاقة إليه، فتعلمها في الثاني من أيَّار أنه يعاني من وعكة، فتردُّ هي في الخامس عشر من أيَّار موصيةً إيَّاك بأن تهتمَّ به ولا تهمله لأن لا قيمة لك بدونه، وفي السابع عشر تردُّ أنت قائلاً إنك شديد الحرص عليه وإنه قد تعافى من الوعكة، وفي الثلاثين من أيار تطلب منك «سوزان» ألا تكشفه لأحد فتعدها في الأوَّل من حزيران بأنك لن تفعل ذلك لأنك تعرف أهميَّته».

وبينما تابع المحقِّق قراءة المقتطفات المتعلقة بـ«المسيو

جاك» في رسائل الاثنين كان صاحبنا قد تذكَّر «المسيو جاك» وتلك الليالي التي قضاها مع «سوزان» التي أطلقت اسم «المسيو جاك» على البطل الأساسي لتلك الليالي لكي تتجنَّب نطق التسمية الحقيقيَّة التي كانت تعتبرها بذيئة.

قهقه بشكلٍ هستيريٍّ ولم يتمكَّن من التوقُّف عن الضحك حتى عندما صرخ به المحقِّق، لا بل إن العنصرين اللذين كانا يقفان عند الباب أصيبا بعدوى الضحك فأخذت تفلت من بين شفاههما ضحكاتٌ لم يتمكَّنا من كبتها، وعندما انتهى ذلك أعلم صاحبنا المحقِّق بماهيَّة «المسيو جاك» ماسحاً عن عينيه بقفا كمِّه الدموع التي أفرزها الضحك.

سيطر على المحقِّق صمتٌ من ذلك النوع الذي يرافق شخصاً عندما يفشل في مهمَّةٍ ما فيبحث عن طريق آخر للنجاح، فأمر الحارسين باقتياده إلى غرفة التعذيب، وهناك لم يتغيَّر شيءٌ يفيد التحقيق، حيث كان يكرِّر الإجابة نفسها على الرغم من تلك الركلات الموجعة التي كان يتلقَّاها على «المسيو جاك» كلما أكَّد لهم من هو «المسيو جاك».

تناوب عليه المحقِّقون والجلادون ولكنه لم يغيِّر شيئاً في أقواله، ممَّا جعلهم يصدِّقون أخيراً فيطلقون سراحه.

عاد إلى بيته فوجد في صندوق البريد عشرات الرسائل التي أرسلتها «سوزان» في غيابه، وكلُّها كانت تنتهي بالسؤال عن

«المسيو جاك» الذي كان قد خمد نهائياً بسبب الرعب الذي أصابه والركلات الكثيرة التي تلقَّاها أثناء التحقُّق من هويته. ولذلك فقد أصبح صاحبنا على قناعةٍ تامةٍ بأنَّ الحب الذي كان يربطه بـ «سوزان» قد تعرَّض للدمار التام بعد مأساة «المسيو جاك» الذي كان أوَّل وأهمَّ مقوِّمات ذلك الحب. ولهذا فقد جلس إلى الطاولة وكتب في ردِّه على رسائل سوزان المطوَّلة رسالةً لم تحتوِ سوى على ثلاث كلمات: (المسيو جاك مات).

1996

مطالب

منذ أن وعت أعين العبيد على الدنيا وهم على هذه الحال. في كلِّ يوم يوزِّعون عليهم نصف رغيفٍ من الخبز صباحاً فيأكلون ويتوجَّهون إلى العمل في الحقول والمناجم وبقيَّة الأماكن، ثمَّ يوزِّعون عليهم نصف رغيفٍ آخر في المساء فيأكلونه وينامون، ولم يفكر أحد منهم في أنَّ الإنسان يمكن أن يأكل أكثر من ذلك، ولهذا فقد كانوا راضين بما يُوزَّع عليهم وقانعين بحصَّتهم من الخبز.

ولكن وبسبب الوفيَّات الكثيرة في صفوفهم، أدركوا أنَّ هذه الكميَّة غير كافيةٍ من أجل الحياة، فتذمَّروا وقرَّروا القيام بمظاهرةٍ إلى القصر الإمبراطوري، فقد ظنوا أن الإمبراطور سيحلُّ لهم المشكلة، ولكنَّ الإمبراطور بدلاً من أن يستمع إليهم وجَّه الأمر إلى

الحارس، فتناول هذا القوس والنشَّاب ووقف على شرفة القصر وأخذ يرمي حتى سقط ثلاثةٌ أو أربعةٌ منهم فهربوا ولم يعودوا إلى ذلك مرَّةً أخرى إلا بعد مضي أعوامٍ على تلك الحادثة، وكان الجوع قد فتك بالكثير منهم. ولكنهم في هذه المرَّة اتَّفقوا على ألا يهربوا مهما سقط من القتلى في صفوفهم، وهذا ما حصل، فقد أمر الإمبراطور رئيس الحرس فتناول هذا القوس والنشَّاب مرَّةً أخرى وأخذ يرمي إلى أن قتل عشرةً منهم، وعندما أدرك أنهم لن ينسحبوا قبل أن يحصلوا على ما يريدونه خرج الإمبراطور وسألهم:

- «ما هذا الضجيج؟ ماذا تريدون؟».

* «نريد خبزاً... ».

ردَّ زعيم العبيد فشعر الإمبراطور بالاستغراب:

- «تريدون خبزاً؟ ألا يكفيكم رغيفٌ ونصفٌ في اليوم؟».

* «نحن لا نحصل على رغيفٍ ونصفٍ يا مولانا... نحن نتلقَّى رغيفاً واحداً فقط».

تصنَّع الإمبراطور الاستغراب ونظر إلى الحارس صارخاً في وجهه: «أتسرق نصف رغيفٍ من قوت الشعب أيُّها اللص؟».

ثمَّ انهال عليه صفعاً أمام العبيد الذين شعروا بسعادةٍ والحارس الذي يضربهم ويذلُّهم دائماً يتعرَّض للضرب. ثمَّ انصرف العبيد يهتفون تحيَّةً للإمبراطور العادل الذي أعاد الحق إلى أصحابه، بينما الحارس يقسم أنه لم يسرق.

لحق الحارس الإمبراطور إلى داخل القصر وجثا على ركبتيه منتحباً وأقسم أنه لم يسرق الخبز، فضحك الإمبراطور وقال له:

- «أعرف أيُّها الغبي، ولكن أحداً ما يجب أن يكون لصَّاً، لكي نبرِّر نقص الخبز، فهل تريدني أن أقول إنني أنا اللص؟».

* «لا أبداً يا مولاي، أقطع لسان من يقول عنكم ذلك... فهمت الآن».

ردَّ الحارس وقد تلاشى الخوف عن ملامح وجهه وظهرت مكانه علامات الإعجاب بحنكة وذكاء الإمبراطور، ثمَّ استمرت الحياة كما كانت عليه قبل أن يتكرَّم الإمبراطور بنصف الرغيف على عبيده.

لا أحد يدري كم قرناً مضى على هذه الحال، يحصل العبيد على نصف رغيف في الصباح ثمَّ يجرُّون السلاسل التي تقيِّد أرجلهم ويتوجَّهون إلى الحقول والمناجم ومقالع الحجارة، ثمَّ يحصلون على مثله عند الغداء يتلوه نصف رغيفٍ آخر على العشاء. ولكن كما يقولون فإن دوام الحال من المحال، ولذلك فإنه كان لا بد من حدوث أمرٍ يدفع إلى التغيير، وكانت الشرارة هذه المرَّة قطعةُ جُبنٍ صغيرةٌ عادت بها زوجة أحد العبيد التي تعمل خادمةً في قصر الإمبراطور، وكانت قد عثرت عليها في القمامة.

تذوَّقها العبد وأقسم أنها نوعٌ من أنواع الطعام، ثمَّ نادى على العبيد الذين اجتمعوا وتذوق كل منهم قطعةً صغيرةً منها وبهروا

بطعمها اللذيذ، ثمَّ سألوا المرأة التي أحضرتها عن اسمها فقالت لهم: «جبن».

ولم تكد شمس صباح اليوم التالي تشرق حتى كان العبيد يجرجرون سلاسلهم ويتوجَّهون إلى القصر مطالبين بالحصول على قطعةٍ من الجبن مع الخبز.

وكما حصل في المرَّة الأولى حصل هذه المرَّة، فقد وجَّه الإمبراطور لحارسه الأوامر فتناول الحارس بندقيته ثمَّ رمى عدداً من العبيد فهربوا وقرَّروا متابعة حياتهم بدون جبن.

ولكنَّ الأيَّام مضت وطعم الجبن لم يختفِ من بين أسنانهم، وخاصَّةً كبار السن الذين تسنَّى لهم تذوُّق تلك القطعة. وكانت الجدَّات عند المساء تروين الحكايات عن الجبن لأحفادهن قبل النوم، ففي إحدى الحكايات يقوم عبدٌ بإنقاذ أميرةٍ من الغرق فيمنحه الإمبراطور قطعةً كبيرةً من الجبن، وفي حكايةٍ أخرى أراد أميرٌ أن يتزوَّج ابنة الإمبراطور التي وضعت شرطاً للزواج منها أن يحضر لها الأمير قطعة جبن، فقام الأمير بقتل التنِّين وقطع رؤوسه الثلاثة ليحضر لها قطعة الجبن، وغير ذلك الكثير من الحكايات والأساطير. هذه القداسة التي مُنحت للجبن جعلت منه مبرراً للثورة الثالثة على الإمبراطور من قبل أجيالٍ شابَّةٍ لم تتذوَّق الجبن، فتوجَّهت إلى قصر الإمبراطور تجرُّ سلاسلها مطالبةً بالجبن.

دخل الحارس مسرعاً يحمل رشَّاشاً حصل عليه مؤخَّراً

وطلب من الإمبراطور الإذن، فأذن الإمبراطور له بذلك وقام هذا بنصبه على الشرفة وأخذ يرمي حتى انتهى شريط الرشاش الذي كان فيه خمسمئة طلقة، وسقط الكثير من العبيد قتلى، ولكنهم لم يتراجعوا وتابعوا التقدُّم باتجاه القصر، فلم يجد الإمبراطور بدَّاً من الحديث معهم:

- «ماذا تريدون؟ لماذا كلُّ هذا الضجيج؟».

* «نريد جبناً».

صاح عبدٌ شجاعٌ، فارتسمت ملامح الدهشة على وجه الإمبراطور الذي صرخ: «ألا يصلكم الجبن؟».

ثم استدار نحو الحارس وبصق في وجهه قائلاً:

- «أتسرق الجبن أيُّها السافل؟».

وبعدها وعد العبيد بالإشراف شخصيَّاً على توزيع الجبن، وأمر الحارس بأن يوزِّع عليهم الحلاوة كـ«مكرمة» منه، فلملموا قتلاهم وانصرفوا يهتفون بحياة الإمبراطور العادل الكريم.

عاش العبيد بعد ذلك طويلاً في حالةٍ من الشبع، وكان الإمبراطور تلافياً لثوراتهم يقوم في كل فترةٍ بتوزيع شيءٍ جديدٍ عليهم، حتى امتلأت خزائن الطعام لديهم وجاء زمن كان بعض طعامهم يفسد قبل أن يتمكَّنوا من تناوله، ويمكن القول إن شيئاً لم يكن يعكِّر صفوهم.

ولكن وفي صباح أحد الأيام وبينما كان أحد العبيد الذين

يعملون في مقلع للحجارة منهمكاً في عمله، انقطعت سلسلة القيد الذي شُدَّ إلى رجليه، فقرَّر الذهاب إلى الحدَّاد لكي يضع سلسلةً جديدةً بدل تلك التي انقطعت، ولكنَّ بقيَّة العبيد أقنعوه بأن يترك ذلك حتى نهاية العمل لكي لا يُتَّهم بالتقاعس في العمل ويُعاقب عقاباً شديداً، فأصغى إليهم وتابع العمل بدون قيد.

وأثناء العمل كانت تراوده مشاعرُ فرحٍ غريبةٌ لم يشعر بها قط سابقاً، ولم يدرك سببها أوَّلاً، ولكنه في نهاية المطاف عرف السر، فقد لاحظ أنه يحرِّك رجليه بحريَّة، وعندها أخذ يقفز فرحاً، ثم أخذ يرقص واجتمع حوله العبيد والدهشة تملأ عيونهم لما يفعله، وأخذ بعضهم يحذِّره من السقوط والبعض الآخر من عدم التهوُّر، وظنَّ بعضهم أنه أصيب بالجنون، ولكنهم جميعاً شعروا بالحسد نحوه، فقد كانوا واثقين من أنه يشعر بفرحٍ لم يشعروا هم بمثله في حياتهم. وبعد أن انتهى، أو بكلامٍ آخر شبع من الرقص، جلس على حجرٍ وأخذ يروي لهم عن مشاعره بدون قيد، فكان الجميع يتابعونه باهتمامٍ وانهمرت الدموع من عيون بعضهم نتيجة تأثرهم بما سمعوا، وفي نهاية المطاف قرَّروا التوجُّه في تظاهرةٍ إلى قصر الإمبراطور لكي يخلِّصهم من القيود.

لم يصدِّق الإمبراطور عندما سمع من الحارس ما يريدونه، وصرخ غاضباً: «طلبوا زيادة في الخبز فأعطيناهم... طلبوا جبناً فأعطيناهم الجبن مع الحلاوة... ثم أغدقنا عليهم براحة الحلقوم...

المارتديلا الإيطاليَّة جعلتُهم يتناولونها، كلُّ ما يمكن أن يدخل إلى المعدة تذوَّقوه، أمَّا الحريَّة فلا... لا... لا... وألف لا..».

شعر الحارس بفرحٍ عارمٍ وهو يرى الإمبراطور غاضباً على العبيد، فبينه وبينهم كراهيةٌ تشبه كراهية القطط والفئران، ولذلك فقد وجد الفرصة الملائمة لكي يقدِّم له السلاح الجديد ليستخدمه في قمع الاحتجاجات، فمدَّ إلى الإمبراطور قنبلةً وقال وعلى شفتيه ابتسامة: «تفضَّل يا مولاي».

* «ما هذا؟».

- «قنبلةٌ ترميها على العدوِّ يا مولاي فتبيد جنوده عن بكرة أبيهم».

لم يتردَّد الإمبراطور في أخذها، فهذا بالتحديد ما كان يريد فعله، ارتدى القناع الواقي الذي قدَّمه له الحارس الذي ارتدى بدوره القناع، ثم أطلَّ من شرفة القصر ورمى بتلك القنبلة التي ملأت الإمبراطورية بدخانٍ أصفرَ كريه الرائحة.

بعد ساعاتٍ تبدَّد الدخان مخلِّفاً عدداً لا يحصى من جثث العبيد، لقد مات الجميع والقيود في أرجلهم، عبدٌ واحدٌ فقط كانت رجلاه متباعدتين، لقد كان يرقص وهو يلفظ أنفاسه، إنه ذلك الذي انقطعت سلسلة قيده.

- «لم يبقَ لدينا شعب». علَّق الإمبراطور وهو يتأمَّل منظر الجثث من النافذة المغلقة بإحكام.

فطمأنه الحارس: «لا تقلق يا مولاي، أتوجَّه إلى الغابات حالاً وأجمع لكم شعباً جديداً».

- «لا.. لا... لا... لا أريد شعباً همجياً... أريد شعباً متحضِّراً».

ثمَّ أخرج الإمبراطور من جيبه بطاقة فيزيت وأعطاها للحارس آمراً إياه بأن يتوجَّه إلى العنوان المذكور فيها ويحضر العالم المذكور اسمه، والذي التقاه في إحدى زياراته إلى الخارج.

وبعد أيَّام عاد الحارس برفقة عالم الاستنساخ الذي رحَّب به الإمبراطور وشرح له معاناته الأليمة مع شعبه العاق الذي اضطُرَّ إلى التخلُّص منه، وطلب منه أن يستنسخ له شعباً يسمع ويطيع ولا يسبب له الصداع والمشاكل.

* «بكلِّ سرور».

قال العالم ثمَّ أردف: «المهمُّ أن تكون هناك خلايا نصنع منها الشعب».

- «بكلِّ سرور».

قال الإمبراطور مقلِّداً العالم وعلى وجهه ابتسامةٌ تمتدُّ من الأذن إلى الأذن، ثمَّ كشف عن مؤخَّرته ووضعها أمام العالم وأردف: «خذ ما يحلو لك من الخلايا».

1997

الذوَّاقة

الذوَّاقة هو المنصب الوحيد الذي لا يتطلَّب جهداً، بل على العكس يمكن اعتباره نوعاً من الراحة، فكل ما يتطلَّبه العمل في هذه المهنة هو مشاركة الإمبراطور طعامه، الشرف الذي لا يحصل عليه بشكلٍ يوميٍّ ثلاث مرَّات على الأقل، سوى الذوَّاقة، إضافةً إلى أنَّ هذه المهنة كانت توفِّر فحصاً طبيّاً يوميّاً للشخص الذي يمارسها، فبعد كلِّ وجبةٍ يخضع الذوَّاقة لفحصٍ طبيٍّ دقيق، وأيُّ تغيُّرٍ يطرأ على صحَّته، مهما كان طفيفاً، يجعل الفريق الطبيَّ للإمبراطور يقوم بفحصه وعلاجه بشكلٍ يجعل المرض يندم لأنه تسلَّل إلى جسمه.

لهذا فقد كان العمل في هذه المهنة حلماً يطمح في الوصول

إليه جميع أفراد الحاشية السفلى للإمبراطور، وكانت تحدث الكثير من المؤامرات لكي يتمكَّن بعض أفراد الحاشية من تحقيق هذا الحلم.

لم يكن أحدهم أبداً يخشى أن يدسَّ شخصٌ ما السمَّ في طعام الإمبراطور، فطبَّاخ الإمبراطور كان رجلاً موثوقاً تعرَّض لألف امتحانٍ في إخلاصه قبل أن يحصل على هذا الشرف، إضافةً إلى ذلك فقد كانت عشرات العيون تراقب كلَّ حركةٍ يقوم بها منذ أن يستيقظ إلى أن ينام، وحتى لو أراد دسَّ السمِّ فلن يجد وسيلةً لإيصاله إلى المطبخ، وأيُّ شخصٍ آخر يفكِّر في ذلك فإنه يعرف سلفاً أن الأمر سينكشف عند الذوَّاقة، وقبل وصول السمِّ إلى الإمبراطور، وأنهم سيجرون تحقيقاً لن ينتهي قبل كشف الفاعل، وعندما يصلون إلى ذلك الفاعل فإنه سيُسحق كصرصارٍ تحت نعل، لهذا فقد كان الذوَّاقة يأكلون دون أدنى قلق.

يجتمعون كلَّ يوم في غرفة الطعام قبل ساعتين من مواعيد وجبات الإمبراطور. وفي ذلك اليوم كما في كلِّ الأيَّام، كان الذوَّاقة الخمس في الساعة الثانية عشر تماماً يجلسون كلٌّ في مكانه خلف الطاولة المخصَّصة لذلك.

أشار رئيس الحرس الإمبراطوري بيده للخدم فأحضروا رغيفاً من الخبز قُطِّع نصفه إلى خمس قطع وتُرك نصفه الآخر قطعةً سادسةً وُضعت على صينيَّةٍ من الذهب. وُضعت أمام كلٍّ من الذوَّاقة قطعةٌ

من القطع الخمس ثمَّ أشار لهم رئيس الحرس فتناول كلٌّ منهم قطعته، بعد ذلك انتظر رئيس الحرس ربع ساعةٍ ثمَّ رفع يده في إشارة أخرى دخلت بعدها مجموعةٌ من الأطباء قاموا بفحص عيون الذوَّاقة الخمس وحلوقهم وقاسوا لهم الضغط ثمَّ أخذوا عيِّنةً من دم كلٍّ منهم وأبلغوا رئيس الحرس أنَّ الفحص الأولي لا يشير إلى أيِّ مشكلةٍ في الخبز، ثمَّ أشار لهم رئيس الحرس فانصرفوا. بعد ذلك رفع يده مرَّةً أخرى فدخل الخدم يحملون ستَّ قطعٍ من اللحم وُزِّعت خمسٌ منها على الذوَّاقة وُوضعت السادسة في صحنٍ ذهبيٍّ على الصينيَّة الذهبيَّة، تناول الذوَّاقة اللحم، وبعد ربع ساعةٍ أعطى رئيس الحرس الإمبراطوري إشارته المعهودة فدخل الأطبَّاء وقاموا بالإجراءات نفسها، وتكرَّر ذلك مع الشراب وبقيَّة الأطعمة التي تتكوَّن منها وجبة الإمبراطور، ثمَّ انصرف الذوَّاقة إلى غرفةٍ مخصَّصةٍ لهم وجلسوا ينتظرون النتيجة.

في الساعة الثانية أحضر رئيس الأطبَّاء تقريره الذي يحمل نتائج تحاليل المخبر، فاطَّلع رئيس الحرس الإمبراطوري عليه وطلب من رئيس الأطبّاء توقيعه فوقَّعه الطبيب، ثمَّ طواه رئيس الحرس ووضعه في جيبه ودفع عربة الطعام الإمبراطوري باتجاه غرفة الإمبراطور.

كان الإمبراطور جالساً خلف الطاولة يفكِّر في أمرٍ ما عندما كان رئيس الحرس يوزِّع الأطباق أمامه، وعندما انتهى تراجع إلى

الخلف وأعلن بصوتٍ رقيق:

- «الطعام جاهز جلالتكم».

ألقى جلالته إلى رئيس الحرس نظرةً لم يدرك الأخير فحواها، ولكن هُيِّئ إليه أنَّ الإمبراطور يشعر بالقرف من أمرٍ ما، غير أنه شدَّ نفسه ووقف باستعدادٍ وحنى رأسه في حركةٍ سريعةٍ كما يفعل دائماً عندما ينظر الإمبراطور إليه.

عاد الإمبراطور بعينيه نحو الطعام وأخذ يحدق فيه ثمَّ أمسك بشوكة الطعام وغرزها في اللحم وأمسك بالسكِّين ووضعها على اللحم أيضاً ولكنه لم يقطعه، تابع التحديق في الطعام بعينين فيهما تعبيرٌ يراه رئيس الحرس الإمبراطوري للمرَّة الأولى.

غرق الإمبراطور في تفكيرٍ عميقٍ استمرَّ عدَّة دقائق قبل أن ينتفض فجأةً ويرمي بالسكِّين جانباً ويضع يده اليمنى على يسار الأطباق الذهبية ويدفعها بعنف مبعثراً إياها على الأرض، وصرخ:

* «مللت...».

ثمَّ نظر إلى رئيس الحرس نظرةً حزينةً أثارت شفقة رئيس الحرس وكرَّر: «مللت...».

كانت نظرةً يراها رئيس الحرس للمرَّة الأولى، رأى في عيني الإمبراطور الغضب، ورأى الحقد والنشوة والفرح وكلَّ المشاعر الأخرى، أما الألم والحزن فإنه يراه في عيني الإمبراطور للمرَّة

الأولى.

- «عفوك يا مولاي... عفوك... سنأمر الطبَّاخ بتجهيز وجبةٍ أخرى في الحال».

* «مللتُ الطعام... مللتُ كلَّ شيء... كلَّ شيء...».

تابع الإمبراطور بالصوت الحزين نفسه، ثمَّ دفن رأسه في راحتيه وأخذ يبكي.

وبعد قليل رفع رأسه والتفت نحو رئيس الحرس بنظرةٍ رأى فيها رئيس الحرس الجنون:

* «أحضر لي سُمَّاً... أريد أن أنتحر».

صُعق رئيس الحرس بهذا الطلب وشَّد جسمه وأخذ وضعيَّة الاستعداد كما هي العادة وفكَّر في نفسه: «إنه يختبر إخلاصي»، ولكنه لم يدرِ ما عليه فعله ونطق بصعوبةٍ بالغة:

- «فدتك روحي يا مولاي... ننتحر جميعاً دون شعرةٍ من رأسك».

ضرب الإمبراطور بيده على الطاولة وقال كاتماً غضبه:

* «أريد... سُمَّاً... لكي أنتحر... ولا أريد أن أسمع أيَّ كلامٍ آخر..».

ثمَّ نظر إلى رئيس الحرس وتابع: «هل فهمت؟».

رئيس الحرس شدَّ جسمه من جديدٍ وقال بحماسٍ وهو لا يزال يظنُّ أن الإمبراطور يختبر إخلاصه:

- «اسمحوا لي أن لا أنفِّذ هذا الأمر يا مولاي».

ثم شدَّ جسمه وحسَّن وضعيَّة الاستعداد، بينما نهض الإمبراطور غاضباً وصفعه صفعةً قويَّةً جعلت رئيس الحرس يرتدُّ إلى الخلف وقد كاد يفقد توازنه، بينما اقترب منه الإمبراطور وأخذ يصرخ في وجهه:

* «مللتُ تملُّقك... مللتُ كذبك... مللتُ رؤية سحنتك هذه كلَّ صباح... أحضر لي السُّمَّ في الحال... أريد أن أنتحر!».

أيُّ أحمق كان يمكنه أن يشعر بالصدق في كلام الإمبراطور، ولكنَّ رئيس الحرس كان لا يزال يعتقد أن الإمبراطور يختبر إخلاصه، فصاح بحماس:

- «لن أنفِّذ هذا الأمر حتى لو حكمتم عليَّ بالإعدام».

لم يحتمل الإمبراطور هذا التمرُّد من شخصٍ مهمَّته تنفيذ الأوامر، فانهال عليه صفعاً حتى أسقطه أرضاً، ثم بدأ بركله بدون رحمةٍ صارخاً:

* «منذ متى تناقش أوامري أيُّها الوغد؟ أحضر السمَّ في الحال».

فهم رئيس الحرس بعد أن فهمت الجدران أنَّ الإمبراطور

صادقٌ فيما يقول، فزحف باتجاه الباب وهو يردِّد:

- «أمركم مطاعٌ يا مولاي.. سيكون السمُّ عندكم بعد لحظات».

الذوَّاقة الخمس كانوا يلعبون الورق في غرفتهم عندما دخل أحد الحرَّاس وأبلغهم أن رئيس الحرس يطلبهم بشكلٍ عاجل، وهو أمرٌ معتادٌ عندما يزور الإمبراطور ضيفٌ مهم، حيث يقومون بتذوُّق الطعام والشراب قبل تقديمه لهذا الضيف.

في غرفة الطعام كان رئيس الحرس قد وضع قطرةً من خمسة أنواعٍ فعَّالةٍ من السمِّ في خمسة كؤوس عصير، فكما هو مسؤول عن تأمين حياةٍ هانئةٍ للإمبراطور كان مسؤولاً عن تأمين ميتةٍ هانئةٍ له أيضاً، لذلك كان عليه أن يختبر السمَّ الأكثر فاعليةً الذي يؤدِّي إلى موتٍ فوريٍّ ولا يتسبَّب بأيَّة معاناة.

دخل الذوَّاقة الخمس والسرور بادٍ على وجوههم وجلس كلٌّ منهم في مكانه المحدَّد في انتظار الإشارة المعهودة التي تلقُّوها في الحال. شرب كلٌّ كأسَه فسقط أحدهم قبل أن يصل العصير إلى معدته، بينما أخذ الآخرون يتلوون، وكان هذا كافياً لمعرفة السمِّ المطلوب للموت الإمبراطوري، فوضع منه قطرةً في الكأس وحمل الصينيَّة الذهبيَّة وتوجَّه إلى غرفة الإمبراطور.

عندما فتح رئيس الحرس الإمبراطوري الباب شاهد فتاةً تجلس على ركبتي الإمبراطور وتطوِّق عنقه وتقبِّل صدغه، بينما

كان الإمبراطور قد أغمض عينيه وارتسمت على وجهه ملامح اللذة، أدرك رئيس الحرس أنَّ مزاج الإمبراطور قد تعدَّل وأنه لم يعد في حاجة إلى السم، فانسحب بهدوء قبل أن يشعر الإمبراطور بدخوله فيجبره على تناول ذلك العصير، وأغلق خلفه الباب بهدوء.

في غرفة طعام الذوَّاقة وضع رئيس الحرس الإمبراطوري الصينيَّة الذهبيَّة على الطاولة، ثمَّ تناول كأس العصير وسكبه في المغسلة وفتح صنبور المياه لطرد السمِّ إلى المجارير، وأمر أحد مساعديه أن يختار له خمسةً من أفراد الحاشية للعمل كذوَّاقة جددٍ لطعام الإمبراطور، ولم ينس تنبيهه إلى أن يتأكَّد من إخلاصهم.

بينما كان باقي أفراد الحراسة يجرُّون خمس جثثٍ هامدةٍ إلى خارج الغرفة.

1997

نسخة طبق الأصل

كل مشتهى مستجاب، كلُّ أمرٍ مطاع، كلُّ مرغوبٍ مباح، هكذا عاش الإمبراطور حياته من المهد حتى أول الشتاء المنصرم، لدرجة أنَّ شعوراً تسرَّب إلى نفسه جعله يظنُّ بأنه واحدٌ من الآلهة، كلِّيُّ القدرة.

ولذلك فقد كانت صدمته كبيرةً عندما شعر بألم في ظهره أوائل الشتاء الماضي، وممَّا زاد في تأثير الصدمة أنَّ الأطبَّاء اكتشفوا أنَّ سبب الألم مرضٌ في الكلى، وليس «سفقة هوا» كما كان يظنُّ الإمبراطور. وممَّا زاد في تأثير تلك الصدمة أكثر وأكثر هو أن

الأطبَّاء قرَّروا أنَّ عليهم استئصال كلية جلالته اليسرى، وممَّا زاد في تأثير الصدمة أكثر وأكثر وأكثر هو أنَّ الأطبَّاء قرَّروا ضرورة زرع كليةٍ له بدلاً منها، لأنَّ خطراً يهدِّد كليته اليمنى التي يمكن أن تتمرَّد على جسمه في أيَّة لحظة، ويمكن القول إن طابور النبلاء الذين كانوا يصطفُّون في ممرٍّ في المشفى الإمبراطوري للتبرُّع بكلاهم لجلالته، قد خفَّف من تأثير تلك الصدمة وبعث شيئاً من السرور في نفس الإمبراطور، ولكنَّ ذلك لم يتجاوز حدوده المعنويَّة، حيث أثبتت الفحوص أنَّ أيّاً من النبلاء لا تصلح كليته لجلالة الإمبراطور، ولهذا فقد اضطُرَّ الأطبَّاء مرغمين إلى القيام بخطوةٍ وافق عليها الإمبراطور على مضضٍ ولكنها ولَّدتٍ لديه شعوراً تجاوز الصدمة ليصل إلى حالة المأساة، حيث على الإمبراطور أن يزرع في جسده المقدَّس كلية فلاحٍ نجس.

- يا إلهي... يا إلهي... ما الذي فعلته لكي أُمنى بهذا العقاب؟

كانت هذه هي المرَّة الأولى التي يخاطب الإمبراطور فيها الإله كواحدٍ من بقيَّة عبيده، بعد أن كان ينظر إليه في السابق كزميلٍ أو ربَّما كأحد أقاربه البعيدين.

ومع أنه استسلم للأمر الواقع في البداية، إلا أن أفكاراً تواردتْ إلى ذهنه جعلته يفقد عقله: «ماذا لو اضطررتُ إلى استبدال أعضاء أخرى؟ يا سلام!! إمبراطور من الخارج، ومن الداخل حثالة، كلية فلاح، طحال شحاذ، رئتا حرامي، وغير ذلك، ماذا يبقى من

الإمبراطور ساعتها؟».

الـ (غير ذلك) التي قالها بشكلٍ عفويٍّ فتحتْ أمام عينيه مئة نافذةٍ سوداء، فماذا لو كان (الغير ذلك) قطعةً من القطع التي لا يجوز الدخول بها على الحريم الإمبراطوري إذا كانت غريبةً؟ إنه لا يتخيَّل مجرَّد النوم قرب الإمبراطورة بقطعةٍ مزروعةٍ كانت لشخصٍ آخر، فما بالك إن هاجت عليه غريزته ودسَّها في أحشاء الإمبراطورة؟!

- يا إلهي! - مرة أخرى تذكَّر الله - وليُّ العهد... وليُّ العهد لا يمكن أن يُلوَّث ببقايا فلاح... ولا حتى ببقايا نبيل... وليُّ العهد يجب أن يكون إمبراطوريّاً مئة في المئة.

ثمَّ تخيَّل الإمبراطور صوراً لأحداثٍ تجري في مخدعه من تلك التي تمنعها الرقابة وتعرض في المحطَّات المشفرة فقط، ولذلك جُنَّ جنونه، أيَّة امرأةٍ إلا الإمبراطورة، إنها وعاء السلالة الذي يجب أن يكون نقيّاً ونظيفاً.

جمع الإمبراطور الأطبَّاء وأمرهم بكلماتٍ مختصرةٍ بأنَّ عليهم أن يفكروا في طريقةٍ تجعله لا يحتاج إلى قطع غيارٍ غريبة، ليخترعوا كلى وأكباداً وأمعاء إمبراطورية، ليصنعوا قطع غيارٍ احتياطيةً لكلِّ أعضاء الإمبراطور.

- كيف؟ لا أدري... ولكن هذا ما عليكم فعله وإلا قطعت رؤوسكم جميعاً وعلَّقتها على باب المدينة لتكونوا عبرةً لمن

اعتبر.

بهذه الكلمات الواضحة خاطب الإمبراطور أطبَّاءه وانصرف، تاركاً إيَّاهم في حيرةٍ من أمرهم.

ولأنَّ الإمبراطور لا يمزح، وعندما يقول سأقطع فإنه يقطع وسأعلق فإنه يعلِّق، فإنَّ عدداً لا يستهان به من الأطبَّاء تجاوزا حدود الإمبراطوريَّة قبل أن تشرق شمس الصباح التالي، أما أولئك الذين لم يتسنَّ لهم الهرب فقد عقدوا اجتماعاً مصيرياً تمكَّنوا في نهايته من التوصُّل إلى نتيجةٍ ترضي الإمبراطور وتخلِّص أعناقهم: الاستنساخ، سيأخذون خلايا من الإمبراطور ويطبعون عنه في مخابرهم نسخةً ثانيّة مهمَّتها فقط أن تكون مستودعاً للأعضاء الاحتياطيَّة لجلالته.

أعجب الإمبراطور بالفكرة وأعطى الخلايا والأمر للبدء بالتنفيذ، وما هي إلا أشهر قليلة حتى دخل مدير المكتب على جلالته يحمل رسالةً من رئيس الأطبَّاء يعلمه فيها بأنَّ نسخته جاهزةٌ وبأنه يمكنه الاطلاع عليها.

- خونة... عملاء... سأقطع رؤوسكم جميعاً وأعلِّقها على بوَّابات المدينة لتكونوا عبرةً لمن اعتبر...

بهذه العبارات وغيرها من عبارات التهديد كان الإمبراطور النسخة يقف عارياً في وسط غرفةٍ طبِّيَّةٍ أرضها وجدرانها من البورسلان الأبيض ساتراً مؤخَّرته بالحائط وعورته بيده اليسرى

وملوِّحاً بيده اليمنى مطلقاً عبارات التهديد، وكانت أوداجه منتفخةً من الغضب ووجهه أحمرَ كما لو أنَّ الدم على وشك أن يشخب من مسام وجهه لشدَّة انفعاله.

بصعوبةٍ تمكَّن الإمبراطور الأصلي من تمالك نفسه بعد نوبة الضحك الهستيريِّ التي انتابته عند مشاهدته لنسخته العارية عبر الزجاج المعتم الذي يكشف الغرفة الطبية، وبعد أن أمر بمكافأةٍ ماليَّةٍ للأطبَّاء سألهم عن سبب سلوك النسخة العارية، فوضَّح له الأطبَّاء أنَّ الخلايا لا تحتفظ بالشكل فقط، بل تحتفظ بكلِّ ما اكتسبه الإنسان من خبراتٍ وسلوكيَّاتٍ وعادات، بما في ذلك الذاكرة، ولهذا فإن لدى النسخة العارية الذاكرة الإمبراطورية نفسها التي تفترق عنها فقط منذ ولادة النسخة، أمَّا ما سبق ذلك فهي تملك الذاكرة نفسها.

- بكلام آخر... هذا المهرِّج يعتقد أنه الإمبراطور؟

تساءل الإمبراطور فأكَّد له الأطبَّاء ذلك، الأمر الذي لو حصل مع غير الإمبراطور النسخة، لكان كافياً لإعدامه في ساحة المدينة على الملأ ليكون عبرةً لمن اعتبر، ولكنَّ هذا (المهرِّج) هو نسخة الإمبراطور، حتى تسليمه إلى الجلادين الذين كانوا يعالجون عتاة المعارضة، من أجل أن يمحقوا الذاكرة الإمبراطورية في رأسه، لم يكن أمراً محموداً، فهذه النسخة هي مستودع أعضاء الإمبراطور، ومن الضروري المحافظة عليها سليمةً ومعافاة، ولذلك قرَّر

الإمبراطور:

– ضعوه في زنزانةٍ لا يسمع صوته فيها أحدٌ وليصرخ هناك كما يحلو له... سيفهم في نهاية المطاف أنه نسخة.

وضع الإمبراطور النسخة في زنزانةٍ يمكن أن تصنف فيما لو كان هناك تصنيفٌ لزنازين، على أنها من فئة الخمس نجوم، فراشٌ وثيرٌ وجهاز فيديو وتلفزيونٌ ومنافعُ نظيفةٌ بماءٍ ساخنٍ وسجَّادٍ عجميٍّ على أرضها وكلُّ شيءٍ يمكن أن يحتاجه المرء، وطعامه كان من طعام الإمبراطور، باختصار فإنَّ أيَّ سجينٍ في تاريخ الإمبراطورية لم يحظَ بمثل هذه الشروط، ولكنَّ كلَّ ذلك لم يكن يبعث الفرح في نفس الإمبراطور النسخة، فهو في الأحوال كافَّةً إمبراطور، صحيح أنه نسخة، ولكنَّ ذاكرته لا تحتفظ إلا بالذكريات الإمبراطورية، لا بل كانت لديه قناعة بأنه هو من أمر الأطبَّاء باستنساخ شبيهٍ له من خلاياه، ولذلك فقد أصيب بنوباتٍ هستيريَّةٍ في البداية كان خلالها يصرخ ويضرب على الجدران التي كانت مزوَّدةً بعازلٍ للصوت، فلم يكن يسمعه أحدٌ سوى الحارس الذي أمام الباب، وفي النهاية بعد أن شعر باليأس أخذ يصاب بنوبات اكتئاب جعلت إحدى ممرضات الفريق الطبي المشرف عليه تشعر نحوه بالشفقة، لا بل إنها كانت تنتحب وتذرف الدموع أحياناً، قلب المرأة الرقيق الذي كان يخفق في صدرها لم يحتمل معاناة الإمبراطور النسخة، ولذلك فقد اتخذت قراراً قاطعاً بمساعدته على الهرب، وبشكلٍ

من الأشكال تمكَّنت من سرقة مفتاحٍ للزنزانة وسكبت عنه نسخةً وضعتها تحت وسادة الإمبراطور النسخة، لعلَّه ينجح في الهرب.

نسخة الإمبراطور سرعان ما عثر على نسخة المفتاح، ولأنه يدرك أنَّ الهرب لا يفيده في شيء، لأنهم سيعثرون عليه ولو كان خلف سبعة بحار، فقد اتَّخذ قراراً آخر، فانتظر حلول ساعةٍ متأخِّرةٍ من الليل حيث يكون معظم الناس قد أسلموا جفونهم للنوم، وتسلَّل الكسل والاطمئنان إلى نفوس الحرَّاس فانخفضت شدَّة الحراسة، وفتح الباب بحذرٍ شديد، وقبل أن يشعر الحارس الناعس الذي يقف في الخارج كان قد هوى على رأسه بأداةٍ خشبيَّةٍ جعلته يسقط مغشياً عليه، ولكي يتحاشى الحرَّاس المنتشرين في ممرَّات القصر، قرَّر الإمبراطور النسخة أن يتوجَّه إلى مخدع الإمبراطور الأصلي عبر الممرِّ السريِّ الذي لا يعرفه أحد سواهما، حتى الإمبراطورة لا تعرفه.

وهكذا، وبعد أقل من خمس دقائق، كانت فوَّهة المسدس، الذي سرقه الإمبراطور النسخة من الجراب الذي على خاصرة الحارس، قد غرست في صدغ الإمبراطور الأصلي النائم، والذي فتح عينيه ليجد أمامه الإمبراطور النسخة وقد ارتدى أحد أثواب نومه ومدَّ له ثياب الزنزانة آمراً إيَّاه أن يرتديها، ووجد الإمبراطور الأصلي نفسه مضطراً إلى تلبية أوامر النسخة، فارتدى ثياب الزنزانة بعد أن خلع ثياب الإمبراطور، وسار أمام الإمبراطور

النسخة الذي أمره بالسير رافعاً يديه وعدم الالتفات إلى الوراء، وما هي إلا دقائق حتى كان الاثنان قد عبرا الممر السريَّ الذي جاء منه الإمبراطور النسخة ووصلا إلى الزنزانة التي دخلها الإمبراطور الأصلي وسمع بعدها طقّات المفتاح في قفل الباب، فأصيب بالهلع بعد أن أدرك موقعه الجديد، وأخذ يصرخ طالباً تدخُّل الحرَّاس، ولكنَّ الحارس الذي استيقظ ولم يستوعب بعدُ ما حدث معه بالضبط ذهب ليسكب الماء على رأسه لكي يستردَّ وعيه بشكلٍ كاملٍ ولم يأبه للصرخات القادمة من داخل الزنزانة، والتي كان قد اعتاد عليها.

الإمبراطور النسخة، وخشية أن يشفق أحدٌ ما على الإمبراطور الأصلي كما حصل معه، ومنعاً لتبادل الأدوار مجدداً، طلب رئيس الحرس وأمره بتصفية النسخة، فتوجَّه رئيس الحرس فوراً لتنفيذ الأمر، وبعد أن سمع الإمبراطور النسخة من جهة الزنزانة صوت طلقة مسدَّس، اطمأنَّ إلى أنَّ الدائرة توقَّفت، فأرسل في طلب الإمبراطورة التي شعر أنه قد اشتاق إليها فعلاً.

2000

الله يطوّل بعمره

على الرغم من الحراسة المشدَّدة التي كانت تحيط بقصر الإمبراطور والحدائق والمنشآت الملحقة به، والتي لم تكن تسمح حتى للنمل بأن يتسلَّل إلى داخل أسوارها المنيعة، إلا أن كلباً أحمقَ مجهول الهويَّة تمكَّن من التسلُّل إلى هناك بطريقةٍ لا يعلمها أحد. وحين كان جلالة الإمبراطور يتجول في الحديقة والاطمئنان يفوح من نظراته المسترخية على المنظر الممتدِّ أمامه من الخمائل والزهور المختلفة الألوان والتي تصدح منها زقزقة العصافير، كان حين اقترب من إحدى تلك الخمائل يتوقَّع أن يطير من بين أفنانها عصفور، ولكنه لم يكن يتوقَّع أبداً أن يقوم كلبٌ أرعنُ بالانقضاض عليه والوصول إلى بطَّة رِجْله اليمنى التي غرس فيها أنيابه بكلِّ ما أوتي من قوَّة، كما لو أنه أحد زعماء المعارضة، وفي أقل من لحظةٍ

أُشهرت البنادق والمسدسات وخُرطشت جميعها وكادت النيران تفتح بغزارة على رأس الكلب الغبيِّ الذي حاول الهرب ثمَّ توقَّف حائراً أمام الحصار الذي انبثق حوله دون أن يشعر، ولكن الطبيب وقف حائلاً بين فوَّهات البنادق والمسدَّسات وبين الكلب وصاح:

- لا تطلقوا النار... لا تطلقوا النار!

تشنَّجت الوجوه وأُضمرت النوايا السيئة تجاه الطبيب، وخُطِّط له مصيرٌ أسودُ لا يقل عن مصير الكلب سواداً لأنه تجاسر وقام بحماية الكلب الذي تجرَّأ على بطَّة رِجل الإمبراطور، وسأله رئيس الحرس بحقدٍ وهو ينوي تنفيذ حكم الإعدام به وبالكلب معاً:

- «لماذا؟ أهو كلبك؟».

شعر الطبيب بالرعب وأكَّد:

* «معاذَ الله أن أحوي في بيتي كلباً لا وفاء عنده... ولكن علينا أن نمنحه فرصة الحياة لعشرة أيام للتأكُّد إن كان مسعوراً أم لم يكن».

وتابع الطبيب الشرح موضحاً: «لأن الكلب المسعور بعد أن يقوم بعضِّ أحد ما، يموت بعد عشرة أيام... حيث إن بعض البكتيريات القاتلة بالنسبة إليه تتسرَّب إلى دمه وتفتك به... وأمَّا إن لم يكن مسعوراً فإنه يتابع حياته بشكلٍ طبيعي... لأنه...».

- «كفى... كفى... لا داعي للشرح... فهمنا غايتك ومقصدك».

قال له رئيس الحرس وعادت الأسلحة جميعاً إلى أماكنها.

وبدأت عمليَّة الانتظار التي استمرَّت عشرة أيام بلياليها، رُفعت خلالها الابتهالات والصلوات وصيغت الخطب والعظات وكلُّها تطلب من العليِّ القدير أن يمدَّ في عمره، ولكن هذه المرَّة ليس عمر جلالة الإمبراطور كما جرت العادة، وإنَّما عمر الكلب.

2013

ممدوح حمادة

كاتب سوري مقيم في بيلاروس منذ العام 1984، حيث درس فيها الصحافة. عمل مدرِّساً في إحدى جامعاتها ما يقارب العشر سنوات، ثم درس الإخراج السينمائي في أكاديمية الفنون فيها.

يكتب السيناريو التلفزيوني منذ العام 1995. له الكثير من الأعمال الساخرة (منها: بطل من هذا الزمان، بقعة ضوء، ضيعة ضايعة، الخربة، ضبوا الشناتي) وعدَّة أعمال موجَّهة إلى الأطفال.

يرسم الكاريكاتير بشكل متقطِّع، نشر العديد من رسومه في الصحف البيلاروسية، وشارك في معارض دولية مختلفة. نشر العديد من قصصه في الصحف العربية والبيلاروسية. وترجم عدَّة مجموعات قصصية.

صدر له:

1. فنُّ الكاريكاتير من جدران الكهوف إلى أعمدة الصحافة، 1999.
2. فنُّ الكاريكاتير في الصحافة الدورية. 1999.
3. صانع الفراء، مسرحية للأطفال. 1999.
4. المحطَّة الأخيرة، رواية، 1999.
5. جلَّنار، رواية، 2001.
6. أمُّ الطنافس، مجموعة قصصية 2014.

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

استمرَّت كتابة هذه القصص سنوات طويلة امتدَّت من عام 1987 وصولاً إلى عام 2013. وقد كتبت جميعها تحت وطأة استبداد ثقيل جعل تفكيرنا شبه مشلول، وجعلنا جلادين ومراقبين مجانيين على أنفسنا. ومن «الطبيعي» أن يتمَّ الاعتذار عن نشر معظمها كما حصل مثلاً مع قصَّة «الرائحة» التي اعتذرت عن نشرها أو تجاهلتها كل الصحف التي أُرسِلت إليها.

جميع القصص تتحدَّث عن همٍّ عام يشعر الجميع بوطأته بدون استثناء. البعض كان يجهر به في الأوقات التي كتبت فيها القصص على الرغم من الثمن الباهظ، والبعض كان يكتمه. إلا أنه كان بالنسبة إلى الجميع همّاً ثقيلاً لا يمكن للإنسان أن يألفه، أو على أقل تقدير أن لا يتمنى بينه وبين نفسه زواله.

هذه القصص كانت ضمن أشكال التعبير عن ذلك الوجع العام، بعضها قُدِّرَ لها الخروج إلى الشاشة - في بعض فترات الانفراج القليلة - ولو بصياغات مختلفة عن قصص الكتاب، وبعضها ظلَّ حبيساً حتى سمحت له الظروف بالظهور على صفحات هذا الكتاب الذي بين أيديكم.

ممدوح حمادة

ISBN 978-9933-540-07-4
9 789933 540074 >
دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع